الأعمال الكاملة

صالح مرسي



البحار مندي





الأعمال الكاملة



وقصص من البحر

صالح مرسي

طبعة جديدة
منقحة



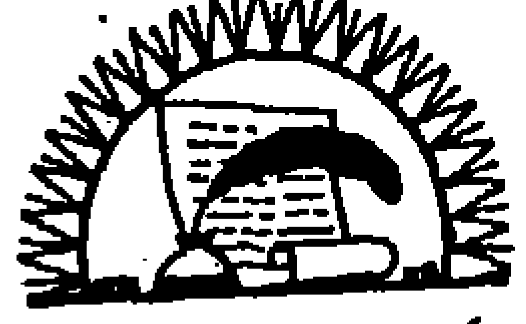
الطبعة الخامسة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مطابع ستار برس للطباعة والنشر

٤٠ ش المحولات الكهربائية - محطة المطبعة

الهرم ت : ٨٦٤١٥١



مكتبة مدبولي الصغير - ٤٥ - البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين - القاهرة

إلى د. مجيد فاضل ،

صالح

الصورة الأولى

أحكي لكم مغامرات البحار مُندي .

لقد أصبح مندي الآن بحاراً مخضرماً ، ذا رأس كبير وشارب هائل رمادي اللون ، وشعر كثيف يختفي تحت طاقية من الصوف تحميه من برد الشتاء وحر الصيف . . . أصبح مندي الآن أسطورة يتناقلها البحارة في السفن التي تعبر البحار والمحيطات وتملأ موانىء الدنيا من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها ، فما من ميناء في الدنيا إلا وتجد فيه أثراً من آثار مندي ، أثراً قد يكون امرأة وقعت في طريقه فأحبته ليومين أو ثلاثة ، ثم ظلت تحكي عنه سنوات في انتظار أن يعود ، وقد يكون الأثر معركة من تلك المعارك التي إذا ما خاضها مندي صال فيها وجال وحطم وضرب وتلقى الضربات ، غير أنه في النهاية ، دائماً ، ما يخرج منتصراً . . . وما من سفينة تمخر عباب المياه الدافئة أو الباردة أو الثائرة إلا وعثرت فيها على رجل التقى به مرة ، أو عمل معه مرة . . . وعلى مدى ثلاثين عاماً ، أصبح مندي الآن أسطورة يتناقلها البحارة في حب وإعزاز ، أو في غيرة من لا يستطيع أن يصبح مثله .

غيـر أن الـذين يعـرفـون حيــاة منـدي في هــذا العــالم قليلون . . . ذلك أن مندي ـ أبداً ـ لا يقص قصص مغامراته أو حياته . . . إنه من ذلك النوع من البشر الـذي يصنع القصص ولا يحكيها ، ذلك أن المرات القليلة التي حكى فيها شيئاً عن حياته ، مرات نادرة . . . لا تستطيع أن تعثر عليها إلا بجهد من يعثر على أبرة في كومة من القش ، أو سمكة صغيرة في محيط بلا شواطىء . . .

ولقد عرفت مندي هذا .

عرفته قبـل أن يصبح بحـاراً وقبل أن ينبت شـاربه الـ[illegible] الرمادي اللون ، وقبل أن تطأ قدمه ظهر سفينة ، عـرفته [illegible] يـافعاً يقـطع شوارع الإسكنـدرية في حـركة ونشـاط ، يجوب أرصفة الميناء ليل نهار ، يبيت أحياناً في قاع قارب ، ويجلس بالساعات ناظراً إلى سفينة راسية يتغزل فيها كما يتغزل عاشق في محبوبة عسيرة المنال . . .

[illegible]ي تلك الأيام البعيدة ، كان مندي ذا وجه مليح ، وعينين سوداوين تحيطهما هالة سوداء تضفي على نـظراته سحـراً من نوع خاص ، كان طويلاً ، وكان نحيلاً ، وكان عنقـه من ذلك النوع الذي ينطلق من بين الكتفين كرمح يحمل رأساً ذا تكوين خاص .

في تلك الأيام البعيدة وقع مندي في الحب لأول مرة في حياته .

ولم يكن حبه من ذلك النوع الذي يمارسه الصبية أو الشبان الذين هم في مقتبل العمر . . . بل كان حباً قوياً عارماً عنيفاً ، من ذلك النوع الذي تضطرم فيه العواطف وتستقر وتتحول إلى أتون يكتوي به القلب ليل نهار . . . ذلك أن مندي ـ هكذا كان حظه دائماً ـ لم يقع في حب فتاة عادية كعامة الفتيات اللاتي كنا نقع في حبهن ونحن صغار ، بل وقع في حب زُغدانه .

ولقد كانت تلك المنطقة المحيطة بميناء الإسكندرية ، في الأزمنة الخالية ، والتي تمتد من رأس التين بحذاء الشاطىء زاحفة حتى باب ستة ، ثم باب الكراستة . . . كانت تلك المنطقة في الأزمنة الخالية ذات طابع خاص . . . كانت الحياة فيها لا تنام ليلاً أو نهاراً ، وكان البحارة فيها ، من كل جنسيات الأرض ، يسعون سعيهم الحثيث نحو اجتلاب اللذة والنشوة والحب ، كانت منطقة تمور بالحياة وتموج بالأحداث . . . غير أنه ، في تلك البقعة التي تقع فيما بين شاطىء رأس التين باب واحد ، حيث تقوم مباني الموانىء والمنائر ، وتتكدس فيها السفن القديمة والمستهلكة ، ويمتد فيها رصيف النورس يحمل فوق سطحه عشرات من بقايا السفن القديمة والمحطمة . . . في تلك البقعة من الميناء ، كان يقوم مقهى « أبو شفة » .

ولقد كان أبو شفة هذا بحاراً اعتزل المهنة أثر عاصفة دمرت سفينته ولم ينج منها سوى بضعة رجال تعلقوا ببقايا

السفينة الطافية بعد أن ابتلعتها الأمواج ، كان اسم أبو شفة هذا هو « الكومي » ، وفقد الكومي في العاصفة ذراعاً وعيناً ، كما شقت شفته العليا نصفين كانت أسنانه تبدو من بينهما . . . واعتزل أبو شفة العمل في البحر . ووجد لنفسه مكاناً فوق رصيف النورس بنى فيه مقهى صغيراً من بقايا السفن ، وقبع هناك مع امرأته وابنته ، وراح يبيع الشاي والأطعمة لعمال السفن والبحارة ، واكتفى من الحياة بتلك البقعة ، يعيش فيها ، ينام فيها ويأكل فيها ويشرب . . . وكانت ابنة أبو شفة هي زُغدانة .

فتحت زغدانة عينيها على الحياة هنا . . . في تلك البقعة الصامتة الآسنة من الدنيا ، تحيط بها جثث السفن المحطمة والقوارب المستهلكة . تمتد الميناء أمامها محدودة الوجود بأجساد السفن الرائحة والغادية أو الراسية ، تفتح عينيها في الصباح على شجار أمها وأبيها ، وتسعى يومها بين الرجال ذوي السواعد القوية والألفاظ الخشنة والأسنان التي تنهش الطعام وتزدرده دون مضغ . تضرب مياه الميناء جـ ب الرصيف بأمواج مصنوعة من أجساد السفن المارة . . . وتد عب أذنها أسراب النورس التي تحط فوق الرصيف عند الغروب صانعة تلك السيمفونية الغريبة من الأنغام . . .

في هذا المكان شبت زغدانة ، شبت لا تحمل من أنوثتها سوى جسد قوي فائر عنيف [illegible]بن . كان أبوها عندما كبرت وانتفض جسدها في اكتمال مبكراً ، قد أصبح حطاماً ، لا

يملك سوى لسان طويل يلهب به أذنيها كلما رآها ، وعين كانت تسرح إلى بعيد ، إلى حيث البوغاز ، بوابة الميناء ، إلى حيث البحر المتسع والدنيا التي ولت . . . أما أمها ، فلقد كانت تقضي يومها فيما بين العمل في المقهى الصغير ، والذهاب إلى حيث السوق لتشتري طعاماً أو تتسوق شاياً وسكراً ، أو تتاجر فيما يقع بين يديها من فضلات البحارة الذين كانوا دائماً ما يحومون حول المكان استجلاباً لرضاء زغدانة أو شتائمها .

ولقد حدث ما حدث ذات يوم على غير انتظار .

كان الوقت صيفاً ، وكان مندي في تلك الأيام يسعى وراء حلمه العظيم ، أن يجد سفينة ـ أية سفينة ـ يرضى قبطانها أن يستخدمه على سطحها ، ساقته قدماه في رحلة من تلك الرحلات التي كان يجوب فيها أرصفة الميناء إلى حيث رصيف النورس ومقهى أبو شفة . . . وهناك ، وعند نهاية الرصيف المطل على بوغاز الميناء الصغير المؤدي إلى ورش الترسانة البحرية ، التقى مندي بزغدانة .

كان الوقت صيفاً ، وكان ظهراً . وحرارة الشمس تلفح الدنيا بلهيبها ، وتدفع الأفكار في رأس مندي كي يقفز إلى المياه ليرطب جسده ، عندما وقع بصره على شيء أذهله .

فعندما هم مندي بأن يخلع ملابسه ، صك سمعه ذلك الصوت الذي ينبىء عن وجود جسد يسبح في المياه ، التفت

إلى اليسار فوجد رأساً يبرز من تحت سطح المياه ، ووجهاً جميلاً ، في جماله وحشية لم يعهدها من قبل في وجوه الفتيات ، في الوجه عينان واسعتان تطلقان بدل النظرات شرراً . وشعر فاحم ينساب من الرأس ملتصقاً بفعل المياه بالعنق ثم الكتفين . . .

ولقد ظل مندي لدقائق يحملق في صاحبة الوجه كما ظلت صاحبة الوجه تحملق بعينيها في وجهه . . . ثمة لحظات قد مرت في ذلك الوقت المهجور من الزمن ، كانت تحمل في طياتها بذرة قصة حب لم تمت أبداً .

قبل أن يفيق مندي من المفاجأة ، كان صوت زغدانة يمزق السكون صائحاً :

« دور وشك الناحية التانية ! » .

في البداية . . . ظن مندي أن ما يراه ليس سوى عروسة من عرائس البحر ، ولقد كانت قصص عرائس البحر تلهب خياله الصبي ، ولطالما تمنى أن يلتقي بواحدة منهن تحمله معها إلى قاع البحر حيث قصور أبيها مصنوعة من الذهب والفضة والمرجان ، صاحت زغدانة فيه لكنه كان كالمنوم ، صامتاً جامداً ، محملقاً ، مشدوهاً . . . وعندما عادت إلى الصياح مرة أخرى ، لم تكن زغدانة تدري أنها تنهر من لا يحب أن ينهره أحد . . . كانت تعلم ، كما كان يعلم كل الرجال الذين تعاملوا مع مقهى أبو شفة . أنها مخيفة . وأنه يكفي لرجل أن يتفوه بلفظ أو يأتي بتصرف حتى تنشب أظافرها

في عنقه وتنهال عليه سباً ولكماً ، وقد تقذفه بقطعة من الحديد أو بحجر ملقى فوق الرصيف ، وكانت دائماً ما تنتصر .

ولقد سمع مندي عن مقهى أبو شفة كما سمع عنه كل من كان يعمل في الميناء أو يرتاده ، ولقد سمع مندي أيضاً عن زغدانة ابنة أبي شفة هذا غير أنه لم يكن قد رآها من قبل ، لكنه الآن ، أدرك بغريزته ، أنه أمام قدر لا مفر له منه . . . وهكذا تلقى صيحتها الأولى جامد الملامح ، لكنه تلقى صيحتها الثانية وهي تنهره وتطلب منه أن يداري وجهه حتى تخرج من المياه ، بابتسامة مستهينة ، وظلت عيناه تحملقان في عينيها بسعادة كانت تزغرد في نظراته . . . وعندما اقتربت زغدانة من أحجار الرصيف ، كان مندي لا يزال حيث كان جالساً ، مدلياً ساقيه نحو المياه . حتى إذا ما أصبحت زغدانة الآن تحت قدميه تماماً . نظرت إليه نظرات غاضبة وهي تسأله :

« مش عاوز تدور وشك ليه ؟! » .

« وادور وشي ليه ؟! » .

« علشان اطلع والبس هدومي ! » .

وتلفت مندي حوله باحثاً بعينيه عن ملابسها . . . وما أن وقعت عيناه على الجلباب المكوم هناك في آخر الرصيف ، حتى برقت في ذهنه فكرة . . . و . . . ولم تكن زغدانة في حاجة إلى أكثر من هذا . . . ففي لمح البصر ، كانت قد غطست في المياه ثم انطلقت في الهواء كسمكة مدربة ،

وامتدت يدها إلى ساقه فجذبته إلى المياه . . .

كانت هذه لحظات ، مجرد لحظات خاطفة وجد مندي نفسه بعدها يسبح بملابسه في مياه الميناء ، بينما جسد زغدانة العاري يعدو نحو جلبابها المكوم ، وقبل أن يفيق أو ينتبه كانت قد ارتدت الجلباب ، وسترت نفسها ، ووقفت تنظر إليه ساخرة !

* * *

هكذا بدأت القصة . . . قصة الحب الغامضة في حياة البحار مندي ، والتي لولاها لما كان كل ما كان في حياته ، ولما تحولت أحلامه من مجرد أحلام تسعى في رأسه إلى واقع أحال حياته إلى أسطورة . . . وعندما خرج مندي من المياه كانت زغدانة قد اختفت وسط أنقاض السفن التي تملأ رصيف النورس . . . كانت آخر مرة رآها فيها وهي تقف عند قمة الرصيف وقد التصق جلبابها بجسدها بفعل المياه ، وضحكتها الساخرة تجلجل في سكون الظهيرة الآسن ، ثم ، وعندما كان يضرب المياه بذراعيه نحو الرصيف . . . اختفت زغدانة . . . ذابت . وعندما صعد إلى الرصيف كانت المياه تتبخر بسرعة من فوق جسده . لكنه كان لاهث الأنفاس ، زائغ العينين ، في صدره غضب ثائر رهيب لم يدر له سبباً ، فراح يسعى بين أنقاض السفن بحثاً عنها . . . كان الصمت عميقاً ، والسكون كثيفاً ، لا تبدده إلا صفارات السفن التي تنطلق في عرض

الميناء من بعيد . . . وكان عليه ن يجد زغدانة . فأين يجدها إلا في مقهى أبو شفة ؟!

* * *

لا يعلم مندي ، وحتى اليوم ، ما الذي حدث له في تلك اللحظات الغريبة من عمره . كان ، كلما جلس إلى نفسه وتذكر تلك اللحظات ، لا يخرج من ذكرياته إلا بهذا الإحساس الغريب الذي يمتزج فيه الفرح بالحزن ، والسعادة بالغضب ، والراحة بالتعب . . . كان ما فعلته زغدانة وكأنه قد فجر في صدره كل المشاعر التي عرفها وكل الأحاسيس التي ما زالت ، وحتى اليوم ، تتأجج في صدره .

كان سعيه بين أنقاض السفن قد استغرق من الوقت ما كان كافياً لأن يجفف ملابسه وجسده . . . وكان اليأس من العثور على تلك الجنيّة قد بلغ مداه فقرر أن يذهب إلى مقهى أبو شفة ، ليقبع هناك في انتظارها . . . وعندما هم بالانصراف ، جاءه صوتها من حيث لا يدري :

« بتدور على حاجة يا شاطر ؟! » .

تلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً ، فقفز خلف قارب ملقى على جانبه ودار حوله فلم يجد أحداً . . . انسابت ضحكة مرحة في سكون الظهيرة هذا فارتجف . رفع رأسه إلى أعلى وكانت زغدانة تجلس هناك . داخل ذلك القارب الصغير المحطم الملقى فوق ربوة من بقايا السفن . . . تجمد في مكانه

ناظراً إليها ، ذلك أنها كانت تطل عليه من حيث كانت باسمة الوجه ، براقة العينين ، في نظراتها تلك التي كانت تطلقها نحوه بريق مخدر ، بريق بدد في نفسه كل غضب ! !

« اسمك إيه ؟! » .

« مندي ! » .

« بتعمل إيه هنا ؟ » .

« وإنتي مالك ! » .

« عارف أنا مين ؟! » .

« زغدانة بنت أبو شفة ! » .

« تعرفني قبل كده يا جدع ؟! » .

« سمعت عنك من العيال ! » .

« سمعت إيه ؟! » .

« إنك بتعضي زي الكلاب ! » .

برز جسدها الفائر فوق حاجز القارب وانطلقت من عينيها نظرة غضب هائل فاجتاحه السرور فهتف :

« وسمعت إن اللي بتعضيه بياخدوه الإسبتاليه ! » .

قبل أن يفيق أو يتم حديثه كان جسدها يقفز في الهواء ليسقط فوقه . . . قبل أن يفيق أو ينتبه إلى ما يحدث وجد مندي نفسه ملقى على الأرض ، وزغدانة تجثم فوق صدره ، وانطلق من عينيها ذلك البريق المخدر فلم يشعر ، أبداً ، بأية رغبة في المقاومة . . . بل ترك نفسه لشتائمها التي كانت

تقذفها من بين شفتين مكتنزتين ، ولفحت أنفاسها وجهه وهي تميل على عنقه فأغمض عينيه في نشوة ، لكنه ، في لحظة ، كان يطلق صرخة مدوية ، ذلك أن أسنان زغدانة كانت قد انغرست في عنقه بعنف آلمه إلى حد الصراخ . . . وعندما وقفت زغدانة فوق رأسه أحس بدفء الدماء تسيل فوق عنقه ، كان الألم طاغياً ، لكن ثمة هدوءاً غريباً كان يجتاح كل جسده . . . وجاء صوته ساخراً ليقول :

« **يعني أنا لازم أروح الإسبتالية بقى !** » .

وانطلق الشرر من عيني زغدانة مرة أخرى ، لكنها ، وقبل أن تعاود الهجوم عليه ، كان قد قفز إليها ، وهوى بكفه فوق وجهها في صفعة تطاير لها شعر زغدانة ، التي ردت على صفعته بلكمة أودعتها بطنه فتلوى من الألم . . . وهكذا . . . وفي هذا المكان المهجور ، كان جسداهما يلتحمان في عنف ، وكان كل منهما يضرب الآخر ضربات عمياء . . . وكانت الدماء تسيل من عنق مندي ، كما كانت تسيل من فم زغدانة . . . حتى إذا أحس كل منهما بالتعب ، حتى إذا وهن منهما الجسدان ارتميا في ظل القارب وهما يلهثان . . . جلس كل منهما بجوار الآخر ، وارتمت أبصارهما فوق صفحة المياه البراقة بأشعة الشمس ، ودوت في الميناء صفارة سفينة كانت قادمة من حيث المجهول . . . وتمتم مندي :

« **أنا عاوز نركب مركب !** » .

التفتت نحوه زغدانة ، ووقع بصرها فوق الدماء التي جفت فوق عنقه ، وكان الجلد أزرق متورماً ، فابتسمت هامسة :

« **علشان تحرم !** » .

قال مندي :

« **أنا جعان !** » .

* * *

هكذا بدأت القصة . . .

قصة البحار مندي الذي أصبح اليوم أسطورة يتناقلها البحارة في موانىء العالم وفوق ظهور السفن التي تقطع البحار والمحيطات ، قصة حبه لزغدانه تلك ، التي لم يكن يدري ، أنه قد كتب عليه أن يظل محباً عاشقاً ملتاعاً ، وأن . . . وأن . . .

ولكن . . . لم نسبق الأحداث ؟!

الصورة الثانية

اكتشف مندي أن الطريق إلى زغدانة محفوف بالمخاطر . . . كما اكتشف أيضاً ، أنه كي يصل إليها ، عليه أن يتخطى سداً من شباب الترسانة والبحارة والمتسكعين والصيادين وكل من يحتسي الشاي في المقهى الصغير . . . كان لقاؤه الأول بها عاصفاً ، لكنه لم يك يعلم أن حياته معها سوف تكون عاصفة ، وحتى النهاية !

وهكذا، ومنذ أن التقى مندي بزغدانة في ذلك اليوم الأسن الحرارة ، تغيرت حياته تماماً ، أصبح ، إذا ما غادر بيته في الصباح ، يتبع ساقية اللتين كانتا تسعيان إلى حيث رصيف النورس ، هناك حيث مقبرة السفن وبقايا الآلات وأقدام الرجال تسعى خارجة أو داخلة . . . وكانت زغدانة إذا ما رأته برقت عيناها الخضراوان ببريق غريب ، وارتسمت على ملامحها تلك الابتسامة الغامضة التي لا تفصح عن نفسها ، وراحت نظراتها تتبعه أينما ذهب وإينما حل . . . وكان ، في بعض الأحيان ، يقترب كثيراً ليجلس فوق عمود رفاص علاه الصدأ ، وراح يعبث في أتربة الرصيف بقدمه وهو يطلب « شيّ

بالحليب » ، وعندما فعل هذا في المرة الأولى جاءه صوت أمها الصارخ :

« انت ابن مين يا وله ! » .

« ابن حوا وآدم ! » .

رفعت المرأة رأسها إليه ورمته بنظرة غضب غير أنه لم يكن في انتظار نظرة الأم ، بل كان غارقاً في عيني زغدانة التي كانت هناك ، عند حافة الرصيف ، تغسل الأكواب والأباريق وقد انثنى جسدها في ليونة فجرت في جسده عشرات المشاعر المضطربة المضطرمة . . . ارتدت المرأة ببصرها حيث كانت عيناه معلقتين فرأت ابنتها وهي ترميه بتلك النظرة التي كانت تعرف ، بخبرتها ، ماذا يمكن أن يكون وراءها . . . صرخت :

« ما تيالله يا بت يا زغدانة ! » .

« حاضر يا امه ! » .

ومن « حاضر يا امه » هذه ، عرفت المرأة كل شيء ، ذلك أنها كانت تعرف ابنتها حق المعرفة ، تعرفها منذ ولدتها ـ على حد قولها ـ عندما كانت تكشر عن أنيابها كلما اقترب منها إنسان ، وكأنها خلقت لتشاكس الناس . . . غير أن زغدانة ، وإن كانت شراستها لا تزال عالقة بنظراتها ، إلا أن ظل الابتسامة هذه قد حدّث قلبها بما سوف يكون فيما هو قادم من أيام .

في ذلك اليوم وقع فوق رصيف النورس حادث جلل . . .

ذلك أن السلطة الإنجليزية في الميناء ، قد سحبت إحدى السفن الحربية إلى الرصيف وتركتها هناك . . .

هكذا بلا مقدمات ودون أن يعرف أحد من الرجال ماهية الأمر ، أطلق « التج » ـ وهذا اسم جرار السفن في الميناء ـ صفارته العريضة وهو يسحب تلك السفينة الخالية إلا من بضعة رجال ، وتركوها هناك .

يومها انقلب الحال فوق الرصيف ، وتعالت الصيحات بين الرجال من الصيادين والعمال . وضرب الجميع أخماساً في أسداس عن ماهية الأمر دون أن يصلوا إلى حقيقة ما حدث . . . السفينة معطلة ، المدافع فوقها ، وعلى أجنابها الحبال والجنازير وكل شيء كل شيء ، ثم لا أحد هناك سوى ثلاثة من البحارة الإنجليز . كان أحدهم يضع على ذراعه شريطين ، ويرسم عليه وشماً ملوناً هائلاً . ولا شيء هناك سوى هذا .

« **هالو جوني !** » .

لكن جوني ـ على غير العادة ـ لم يرد هذه المرة . . .

كان يكفي ، في تلك الأيام ، أن يهتف واحد من المصريين لأي إنجليزي بهالو جوني هذه حتى يرد جوني بطلب ما من تلك الطلبات التي تعود جنود الاحتلال المغتربين عن أوطانهم وبيوتهم لأسباب لا يعرفونها أن يطلبوها . . . لكن الجنود الإنجليز الثلاثة لاذوا بالصمت . فقط ، كانوا يصيحون

في صلف « جو أواي » ، أي اذهب بعيداً . . .

وهكذا أعلنت حالة الطوارىء بين الناس فوق الرصيف .

وارتبكت أحوال المقهى قليلاً فلقد آثر بعض الرجال الابتعاد عن موطن الخلاف أو الشرور . . . وكل الرجال ، كل الرجال بلا استثناء راحوا يتساءلون عن سبب مجيء هذه السفينة إلى رصيف النورس ، ما عدا اثنين ممن كانوا هناك في ذلك اليوم وشاهدوا الحدث العظيم ، هما زغدانة ومندي !

* * *

كان جزء من النهار قد انقضى ومندي لا يفعل شيئاً سوى التسكع بين حطام السفن والنظر من بعيد نحو زغدانة التي كانت تلبي طلبات الزبائن الذين قلّ عددهم ، وتستمع إلى دعوات أمها الضارعة بالخراب المستعجل على الإنجليز والسلطة واليوم الذي رأوهم فيه ، غير أنها ، وطول تلك الفترة ، كانت هي الأخرى تبحث بعينيها دونما رغبة منها ، عن ذلك الذي زرع فوق الرصيف ، وبدا وكأنه لن يغادره أبداً .

حتى حانت تلك اللحظة التي ظل مندي ينتظرها طوال اليوم ، عندما تسللت زغدانة من جوار أمها وراحت تخوض وسط الأطلال الصدئة الملقاة فوق الرصيف ، تصعد جبلاً من الحديد وتغوص تحت ألواح هائلة وآلات ما زال الشحم يغطي أجزاء منها رغم مرور الشهور والسنوات . . . وهناك ، في فجوة وسط الأنقاض كانت في الأصل غرفة قيادة قارب بخاري

كبير ، وجد كل منهما نفسه أمام الآخر .

« طب انت عاوز إيه دلوقت ؟ » .

هكذا سألته ، وهكذا وجد نفسه أمام حقيقة بدت له غريبة كل الغرابة . . . هو أن ذلك الحوار الذي كان يدور في مخيلته منذ الصباح مع زغدانة ، لم يكن حواراً من طرف واحد ، بل كان حواراً متصلاً بينه وبينها ، وعندما سألته عما يريد كان الرد جاهزاً على لسانه :

« إيه حكاية الوله حوده ؟! » .
« وانت مالك . اسم الله ! » .

تقصعت وهي تقذفه بالرد في وحشية . . . كان حودة هذا عاملاً من عمال الترسانة ، كان طويلاً عريضاً مفتول العضلات قوي الذراعين ذا شعر أسود خشن برأسه وكأنه عمامة ، ولم يكن مندي يعرف ، إن حودة هذا بالذات الذي نطق لسانه باسمه دون كل الشباب الذين زاروا المقهى وشربوا فيه شاياً وتبادلوا الحديث مع زغدانة وأمها ، لم يكن يعلم أن حودة هذا بالذات ، قد تحدث مع أم زغدانة في أمر زواجه منها ، وأن الأمر لم يتم لسبب لم يعرفه أحد !

« وأنا مالي إزاي بقى ؟ » .
« اسمع لما أقول لك ، إبعد عن سكتي أحسن لك ! » .
« لما تشوفي حلمة ودنك ! » .
« حاقول لحودة ! » .

« ما تقولي ان شاء الله للجن الأزرق ! » .
« وإذا فعصك تحت إيده زي مافعص غيرك ؟! » .

قال مندي :

« ومقام المرسي لاكون فاتح دماغه ! » .

كانا يجلسان على أرض الكابينة المائلة ويسندان ظهريهما إلى الجدار المحطم ، فبدت جلستهما وكأنها نوع من الاسترخاء لم يقصدا إليه . . . غير أن مندي ، ما أن فاه بما فاه به ، حتى استرخت زغدانة فعلاً ، وأسندت رأسها إلى الجدار ، وأطلقت من عينيها الخضراوين تلك النظرة المشعة التي تعود مندي ، منذ أن أطلقتها عليه لأول مرة ، أن يصاب بنوع غريب من الخدر يحول ثورته إلى استسلام ، وغضبه إلى طوفان من الحنين كان يتفجر من أعماقه بلا إرادة منه . . . ساد الصمت لثوان وجاءه صوتها مبحوحاً هامساً :

« بتحبني يا وله ؟! » .
« وأنا إيش عرفني ! » .

ابتسمت زغدانة هذه المرة ابتسامة صريحة ، فازداد جمالها حتى ارتجف مندي أمام ذلك الوجه الذي أضاءته الابتسامة بنور بدا وكأنه يشع من الداخل . . . وجاءته كلماتها في صوت متكسر :

« أمال انت عاوز مني إيه ؟! » .

أحس مندي بالعجز ، بشيء يكبله ، تململ في جلسته .

دمدم وتمتم وتلاعب بأطراف سرواله ولاعب أصابع قدميه الحافيتين القذرتين . . . وعندما استحثه صوتها وهي تسأل :

« ما تقول ! » .

عاد يقول متبرماً :

« وأنا إيش عرفني ! » .

لم تبتسم هذه المرة . بل ضحكت . كانت ضحكتها مثل تغريد طيور النورس ساعة صيد الأسماك الزاحفة في أسرابها حول الرصيف . نظر إليها مندي في غضب ولم يدر لم الغضب رغم أن قلبه قد رقص فرحاً لضحكتها . . . غير أنه ، وهو في ذروة الغضب ، فوجىء بما لم ينتظره ،تسمر ، جمد ، تحول إلى لوح جامد من ألواح سفينة معطوبة ، فلقد مالت عليه زغدانة ، وطبعت على وجنته قبلة ، ثم همست :

« أصل حودة خطيبي يا عبيط ! » .

* * *

مالت الشمس نحو الغروب في ذلك اليوم وهما لا يزالان جالسين في تلك الفجوة بين الأنقاض والتي كانت في الأصل غرفة قيادة لسفينة صغيرة يقف فيها القبطان آمراً ناهياً فيطاع أمره ونهيه . . . كان الصمت بعد أن طبعت زغدانة قبلتها فوق وجنته خفيفاً كغلالة رقيقة تحميهما من حرارة الصيف في ذلك الظل ، ومن فتحة الكابينة كان سطح المياه في الميناء يترقرق تحت أشعة الشمس المائلة ، وثمة تيار من الهواء الرطب

يخترق الفتحة لينفذ من النافذة فيبعث الخدر في الأوصال . . . حتى إذا ما تحسس مندي مكان العضة في عنقه ، جاءه صوت زغدانة متكسراً نائماً : « لسه زعلان ! » . .

ولم يرد !

ذلك أن الأمر بدا له محيراً كل الحيرة . فلقد آلمته عضة زغدانة ، لا شك في هذا ، سالت من لحمه الدماء وجفت وصنعت مع الوقت قشرة غير أنها تورمت وتحول لونها الأزرق إلى لون أسود ، كانت تؤلمه نعم ، غير أنه كان يشعر مع الألم بلذة غريبة ، لذة حقيقية كتلك اللذة التي اجتاحت جسده لحظة أن التصقت شفتا زغدانة المكتنزتين بوجنته . . . مالت زغدانة ، وقد طال صمته ، نحوه ، فلفحت أنفاسها الجرح في أسفل عنقه فسرت في جسد مندي رعشة واجتاحه الخدر عنيفاً . . .

« بتوجعك ؟! » .
« آه . . . لأ . . . » .

ضحكت ضحكة خفيفة . . . قالت :

« أمي سألتني عنك ! » .

التفت نحوها فإذا أنفاسهما مثل عاصفتين تهبان من اتجاهين مختلفين ، وإذا دوامة من الأنفاس المختلطة تدور بين وجهيهما ، وإذا لحظات سكري تجتاحهما معاً ، وإذا هي تهمس :

« آني بنحبك يا وله ! » .

« حبك برص وعشرة خرس يا بنت أبو شفة ! » .

هكـذا انفجر الصـوت غليظاً غـاضبـاً . . . وامتـدت إلى الداخل ذراع قوية لتقتلع مندي دون أن ينتبه من مكـانه فكأنـه عصفور أمسكته يد عملاق . . . وجد مندي جسـده يسبح في الهواء خارج الكابينة ، وذراع أخرى تحمله من ساقيه ، وجسد حـودة يخطو بـه فوق الأنقـاض حتى إذا هبط التل الحـديدي وأصبح مستقراً فوق الرصيف ، هوى بجسد مندي إلى الأرض في عنف وهو يصرخ :

« لو هويت ناحيتها تاني حانجيب أجلك ! » .

تمرغ مندي فوق أتربة الرصيف وارتطمت رأسه بقطعة من الحديد فسالت دماؤه وانتابه الدوار ، حاول النهـوض فحجبت الدماء السـائلة فوق عينيـه الرؤيـة ، غير أن شبـح حودة كـان ينتصب جباراً فوق رأسه ، وصوته يزأر ليملأ الرصيف بالصياح والصراخ :

« تعـال شوف بنتك يا بو شفة ! » .

مسح مندي الدماء من فوق عينيه وهو ينهض مترنحاً عندما فوجىء بجسد زغـدانة يقفـز من فوق تـل الحطام لتتعلق بعنق حودة وهي تصيح :

« ما لها بنت أبو شفة يا صايع يا ضايع ! » .

قبـل أن يرد حـودة كانت زغـدانة قـد أنشبت أسنانهـا في

عنقه ، فتح حودة فمه ليصيح غير أن الصرخة كانت أسبق من الكلمات ، تجمع الرجال والشباب وبدا وجه أبو شفة بين الجميع بعينه الواحدة وشفته المشقوقة وذراعه المبتورة ، واندفعت من وسط الجميع أم زغدانة وهي تولول :

« ما لها بنت أبو شفة يا بن نفيسة ! » .

كانت زغدانة قد قفزت إلى الأرض صارخة .

« أوعى تهوب ناحيتي تاني إلا ومقام المرسي أجيب أجلك ! » .

« ما لك وما لها يا حودة ! » .

وزمجر صوت أبي شفة مدمدماً :

« إيه العبارة يا جدع ! » .

وقبل أن يرد حودة على أحد منهم ، كان جسد مندي يقفز في الهواء ليرتطم بجسد حودة القوي ، وارتفعت يده تحمل قطعة من الحديد غير المنتظم لتضرب بها الرأس فتهشمه ، لولا صرخة زغدانة :

« مندي ! » .

وتوقفت اليد في الهواء ، وكانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها حودة ، فطوح بجسد مندي إلى بعيد مرة أخرى ، وقبل أن يفيق مندي كانت زغدانة تصرخ فيه :

« انت عاوز تودي نفسك في حديد علشان بغل زي ده ! » .

« أنا بغل يا زغدانة ؟! » .

هكذا هدر صوت حودة .

« أمال انت إيه ؟! » .

« أنا حودة يا بت . . . أنا حودة اللي مفيش منه اتنين في المينا لسه . . . أنا حودة اللي مالوش كبير واللي يجر أجدعها مركب لوحده . . . نسبتي حودة يا زغدانة ؟! » .

« لا مانسيتشي خيبتك لسه ! » .

وانطلقت الضحكات من الجمع الذي كان يحيط بمكان الحادث . . . وقبل أن يفيق أحد لما كان يحدث . . . علا صوت واحد من الجنود الثلاثة من فوق السفينة التي كانت ، حتى ذلك الوقت ، تبدو مهجورة :

« جو أواي » .

كانت الصيحة معززة بمدفع رشاش سدده الجندي إلى الجميع فساد الصمت .

« جو أواي ! » .

علمتهم تجارب السنوات التي عاشوها في الميناء ، أن جنود الاحتلال لا يتورعون عن شيء . . . بدأت أقدامهم تتحرك في كل اتجاه وفي لا اتجاه ، وكل العيون ، كل العيون

كانت تنظر إلى فتحة المدفع الضيقة ، التي كـان من الممكن أن ينطلق منها الموت في أية لحظة !

* * *

عنـدما انسـاب آذان العشاء في سمـاء الميناء يكبـر باسم الله ، كـان كل شيء فـوق الرصيف قـد هدأ ، وكـان الكـوخ الصغير الذي صنعه أبو شفة من بقايـا السفن وحطامهـا تضيئه شعله غمست نهايتها في الكيروسين ، وكانت ترسل مع الضوء الخافت المتلاعب ، سيلاً لا نهاية له من الدخان .

وكان الرجل ما زال صاحياً يتساءل :

« بكره يقولوا لنا شيلوا القهوة من هنا ! » .
« طب وحانروح فين يا أبو زغدانة ؟! » .

وكانت زغدانة ترقد في ركن المكان متظاهرة بالنوم ، غير أنها سمعت الحديث ، وكان ذهنها غائباً تماماً . . . كانت تفكر في مندي . . .

لكنها أبداً ، لم تكن تعرف ما الـذي يفكر فيـه مندي في ذلك الوقت بالذات .

بـل . . . لم تكن تعلم مـا يخبئـة لهـا ولـه القـدر من أحداث . لم تكن تعلم ، أن هذا الإنجليزي بالذات ، سوف يكون أول ضحايا حبها الذي راح ضحيته العديد من الرجال

الصورة الثالثة

كان لوقع الحادثين اللذين وقعا على رصيف النورس في ذلك اليوم أثر كبير في من كان يحيا في المينا ويسترزق منها قوت يومه .

تعالت أصوات الصيادين من قواربهم وهم يلقون الشباك في المياه أو يمسكون بالسنانير يحكون حكاية حودة والواد مندي ، ثم حكاية الإنجليزي الذي أمر الجميع بالرحيل .

في قيعان السفن حيث كان عمال الترسانة يعملون ملطخي الوجوه والأذرع والأجساد بالزيت والشحم ، كان الجميع يتبادلون الأحاديث . .

أما في تلك السفينة التي كان يعمل بها حودة بالذات ، فإن الحديث كان قد أخذ مساراً آخر . . . فرغم قوة حودة الأسطورية ، ورغم خوف الجميع منه ، إلا أنه لم يخل من منافس في القوة ربما ، أو في الحب ، لا يدري أحد . . وكان هذا المنافس هو الأسطى مصطفى .

« إيه العبارة دي يا حودة ! » .

كان الرجال يعملون في غرفة الآلات . تلك الغرفة

المتسعة التي تتشابك فيها المواسير والآلات في غـابة صغيـرة من الحديد تجعـل للصوت صـدى يتردد فيصـل إلى كل ركن وإلى كل أذن . . . وكان الرجال هناك كثيرين ، قد تناثروا بين المواسير وأذرع الآلة البخارية كالقرود ، وكانت صيحة الأسطى مصطفى واضحة عالية ساخرة . . . وقد وصلت إلى أذني حودة بجلاء فلم يستطع تجاهلها !!

كان حودة الآن محنياً فوق ذراع « تـرنك » الآلـة الهائـل فاستقام تاركاً للذراع الحديدية فرصة الحركة كبندول الساعة ، كان الغضب ينبثق من عينيه وهو يصيح :

« **عبارة إيه دي يا معلمي ؟!** » .

ساد الصمت وكف الدق وسكنت الحركة وأرهف الجميع السمع فلقد أيقنوا أن المعركة آتية لا ريب فيها .

« **إيه عبارة الوله اللي اسمه مندي ده ؟!** » .

« **عيِّل وغلط يا معلمي وأهو أخد اللي فيه القسمة !** » .

« **بيقولوا إن زغدانة عضتك !** » .

لم يكن حودة يخشى شيئاً في الدنيا قدر خشيته أن يخوض الحديث في موضوع زغدانة . . . ابتلع لعابه ، وألقى المفتاح الهائل من يده إلى الأرض الصلبة فصنع المفتاح دوياً زاد من عمق السكون في غرفة الآلات ساد الصمت لثوان جاء بعدها صوت حودة !

« **محدش له دعوة بزغدانة . هي كلمة !** » .

اقترب منه مصطفى ساخراً وفي يده مفتاح حديدي مشرع في الهواء !

« بلاش نسألوك يا جدع على اللي حصل ؟ » .

« أيوه بلاش يا معلمي ! » .

« يبقى فيه حاجة تكسف ! » .

« طب انت عاوز إيه على الصبح ؟! » .

« عاوزك تأخد وتدي معانا يا جدع ، هو إحنا برضك مش أهل ! » .

« وهم الأهل يقولوا قوالة زي دي برضك يا جدع ! » .

« طب نعملوا إيه إذا كان اللي شاف بيقول إن الواد مندي كان حايفتح دماغ البعيد لولا زغدانة هي اللي حرصته لأجل ما يروحش في حديد ! » .

كانت هذه هي الذروة . وتوتر الجميع قبل أن يقبض حودة على خناق مصطفى صارخاً :

« وبعدها لكم يا معلم مصطفى . تحب تشوف ! » .

وقبل أن يفتح مصطفى فمه ، علا في المكان ذلك الصوت الموسيقى الذي تعوده الجميع في مثل تلك الساعة من الصباح ، عندما تأتي زغدانة إليهم بالصينية الصدئة وفوقها أكواب الشاي اللزجة بفعل السكر المنثور على حافتها . . . وصوت الملعقة يقلب الشاي مرتطماً بجدران الأكواب صانعاً ذلك النغم الرقيق ، والذي يسيل له لعاب الرجال . ذلك أنهم

جميعاً ، وبلا استثناء ، كانوا يعشقون الشاي من يد زغدانة ، وكانوا ، جميعاً ، يدهشون لذلك الطعم الغـريب الذي يبعث بالنشاط إلى أجسـادهم كلما احتسى أحـدهم كوبـاً صنعته أم زغدانة .

في خفـة كانت زغـدانة تهبط السلم الحـديدي المستقيم وهي تحمل الصينية في يـد ، وتسند جسـدها المعلق بـالسلم باليد الأخرى ، تقف بين الفينة والفينة ، كأنها لاعب أكروبات مـاهر ، لتـدور بساقهـا حول جـانب السلم فتحمي نفسها من السقـوط ، وتديـر الملعقـة في الأكـواب ، وتصيـح بصـوتهـا الناعس :

« صباح الفل يا جدعان ! » .

وكان صوتهـا هذا إيـذاناً للمعـركة بـأن تنتهي . . . وكان أيضاً ، إيذاناً للعاب الرجال أن يسيل ولعيونهم أن تلتهم جسد زغدانة ووجهها وهي تدور بينهم بالأكواب مرددة تحية الصباح بوجه باسم ، وعينين تشعان ببريق سعادة لا يخفى .

« صباح الفل يا معلم مصطفى ! »

« مرحب زغدانة . . إيه عبارتك يا بت ! » .

« اللي يسـأل مـا يتـوهش يـا معلم . . نهـارك نـادي يـا شاكوش ! » .

همس شاكوش وهو يأخذ كوبه في لوعة :

« نهارك أبيض يا زغدانة ! » .

وكان حودة هناك عندما وقفت زغدانة أمامه تقلب له كوب شايه :

« صباح الخير يا أسطى حودة ! » .

« إزيك يا بت ! » . .

« نحمدوه على اللي ياخده ، ونحمدوه على اللي يجيبه ، كده رضا ! » .

من بين أسنانه وفي صوت هامس قال :

« وبعدها لك في اللي إنتي فيه ده ! » .

استدارت زغدانـة دون كلمة ، ومضت في طـريقها يشق جسدها سبيله وسط عشرات العيون التي كانت تتطلع إليهـا . الصينية في يدها خالية والملعقة بين أسنانها ، ويداها وقدماها تخطفان درجات السلم قفزاً سريعاً .

* * *

قال أبو شفة لزوجته :

« البنت اتأخرت في المركب ! » .

« من إمتى بتقلق عليها يا كومي ! » .

« آني مش قلقان عليها يا ولية . . . آني قلقان من المركب الإنجليزي الملقحة هناك دي ! » .

« إحنا مالنا ومالهم ! » .

« إمبارح قالوا جو أواي من هنا . . بكرة يقولوا جو أواي من الرصيف كله ! » .

« إنت حاتقدر البلا قبل وقوعه ليه ؟ » .

« البت اتأخرت ! » .

والتفتت إليه المرأة في خوف :

« ما لك يا كومي ! » .

في حزن حقيقي وغامر ، تمتم الرجل :

« الإنجليز ما يعرفوش ربنا يا أم زغدانة ! » .

وكانت جملته هذه ، إنذاراً دق له قلب الأم . . . و . . . وكانت دقات القلب على حق !

* * *

في ظل ريشة هائلة لرفاص سفينة عملاقة ، كان مندي يقف الآن في انتظار خروج زغدانة من السفينة . . . ذلك أنه ، وبعد ما حدث بالأمس ، قد جاء إلى الرصيف قبل أن تشرق الشمس . . . خوف غريب كان قد غزا قلبه على زغدانة ، لا مما فعله حودة ، ولكن من ذلك الرجل ذى الوجه الأحمر والشعر الأصفر والعينين الزرقاوين والأنف المدبب ، ذلك الرجل الذي كان يحمل في يده مدفعاً رشاشاً له فوهة ينطلق منها الموت ، والذي أمر ، فأطاع الجميع ، ونهر ، فصمت الجميع . . . ذلك الرجل بالذات هو الذي بعث بالخوف إلى قلب مندي . . . ذلك الرجل بالذات رأى في عينيه نظرة تضم زغدانة إلى جفونه . رآها ، دوناً عن الجميع . . . رأى النظرة فدق قلبه ، ولم ينم الليل . وساورته الشكوك ، وعرف

مندي ، لأول مرة في حياته ، طعم الغيرة !

. . .   .

. . .   .

وها هي زغدانة تغادر السفينة وهي تتلاعب بالصينية الفارغة في يدها . . . ها هي ذي تقترب منه وهي تعرف مكانه منذ أن مرت به في طريقها إلى السفينة ، وعندما حاول منعها نهرته متسائلة إن كان يريد منها أن تكف عن العمل والكسب وأكل لقمة العيش بالحلال . . . ها هي تقترب ، حتى إذا ما ضاقت المسافة بينهما ، كانت عيناها تتلفتان يمنة ويسرة ، وبسرعة ، قفزت داخل ركام السفن وذابت ، ولم يكن أمام مندي بد من العودة . . . كان يعرف الطرق بين أطلال السفن ، فراح يسعى ويسعى ، حتى التقيا في ظل جدار سفينة امتلأ بالأعشاب والقواقع والديدان .

« **صباح الخير يا زغدانة !** » .

« **إيه اللي جابك بدري كده يا جدع !** » .

« **داني مانمتش طول الليل !** » .

ورغم أنها ـ أيضاً ـ لم تكن قد نامت طوال الليل ، إلا أنها شهقت صائحة :

« **ليه بقى اسم الله !** » .

« **زغدانة !** » .

في تأفف قالت :

« عاوز إيه مني ! » .
« مش عاوزك تهوبي ناحية الإنجليز ! » .

* * *

صمتت زغدانة تماماً وهي تحملق فيه .

عادت فأرسلت من عينيها تلك النظرات المشعة التي تصيبه بالدوار والخدر . .

وسألته وصوتها يتبدد مع الرياح التي كانت تخترق الفجوات بين الأطلال :

« إيه اللي خلاك تقول حاجة زي دي يا جدع ! » .
« مش عارف ! » .
« وهم الإنجليز بيشربوا شاي ؟! » .
« لأ . . . بس بياكلوا البنات ! » .

و . . . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها زغدانة بخوف حقيقي . وأكد حديث مندي نظرة الخوف تلك وتعرف عليها . دق قلبه وانطلق لسانه مجلجلاً :

« اللي حايمد إيده عليكي بعد النهار ده آني حانجيب أجله ! » .

ضحكت في سخرية وهي تقول :

« زي ما جبت أجل حودة إمبارح ! » .
« إنتي اللي قلتي لي لأ يا بت ! » .

« وسمعت كلامي ليه ؟! » .

اجتاح الغيظ مندي اجتياحاً حتى راح يجز على أسنانه ، لكن ابتسامة زغدانة كانت تتسع في سعادة وقد أدركت كم يحبها . . . قبل أن يفتح مندي فمه لاحقته زغدانة بكلمة أخرى :

« وانت حاتفضل صايع لإمتى ؟! » .
« ماني مش لاقي مركب نطلع عليها ! » .
« اسم الله . اللي عاوز يدور ! » .
« دورت يا زغدانة ! » .

راحت تردح له وقد نسيت نفسها فكأنها زوجة تؤنب زوجها :

« دورت فين يا دلعدي . على رصيف النورس ؟! » .
« قلت لك دورت ! » .
« تحب أجيب لك شغلانة ؟ » .
« فين ؟! » .
« على المركب اللي بتتصلح دلوقت ! » .
« إزاي ؟! » .
« قبطانها يعرف أبويا . والعمرة حاتخلص بعد جمعتين ولو حضرت أوراقك من النهار ده هاتلحق وما تبقاش لك حجة بعد كده . قلت إيه ؟ » .
« إنتي عاوزه تطفشيني يا زغدانة ؟! » .

« لأ . بس مش عاوزه نتجوز عواطلي ! » .

* * *

بدا مندي في تلك اللحظة وكأن أبواب الجنة قد فتحت له . . . لقد سمع أن الرجال هم الذين يطلبون الفتيات والنساء للزواج ، غير أن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها فتاة تقرر الزواج من رجل . . . اجتاحته سعادة لا نهاية لها ، ارتجف بفرحة طاغية ، امتدت يده إلى يد زغدانة فضغط عليها واستكانت يد زغدانة لضغطة يده .

« بتحبيني يا زغدانة ؟! » .

« دهدى . ماني قايلة لك ديك النهار ! » .

« يعني بتحبيني ؟ » .

« أنا اتأخرت على أبويا وأمي ! » .

تململت في محاولة للخروج من الشق الذي كانت تجلس إليه فيه . ضغط على يدها أكثر .

« وحودة ؟! » .

« ما له حودة يا جدع ؟! » .

« مش بتقولي إنه خطيبك ؟ » .

« هو اللي عاز . . وآني قلت يفتح الله ! » .

هتف مُندي في فرح طاغ :

« آني من بكرة حانطلع مركب ! » .

« وتغيب عني بالسنين يا جدع ! » .

وقع مندي في الحيرة . ها هي تطلب منه العمل . وها هو الحزن يطل في عينيها لأنه سوف يبتعد عنها إذا ما سافر . . .

« **وبعدها لك ؟!** » .

« **في إيه ؟** » .

« **نسافر وإلا مانسافرش ؟!** » .

« **والله مانا عارفة . . سيب إيدي !** » .

* * *

وهكذا تركته زغدانـة تحمل هـذه المرة نـظرة حزينـة في عينيها الخضراوين ، انطلق منهما ذلك البريق المخدر وراحت تزحف بين الأنقاض وفي الشقوق حتى اختفت وتركتـه وحيداً في جلسته ، ولم يشعر مندي فيما تقدم من سنوات عمر ، ولا فيما جاء بعد ذلك من سنين ، بمثل ما كان يشعر بـه الآن من راحـة وسعادة وحب . . . فجـأة ، أحس أنه يحب زغـدانة . يحبها حتى الموت ، يحبها ولا يستطيـع أن يحيا يـوماً واحـداً بدونها . . . وهكذا ، وفي لمح البصر ، تنازل مندي عن حلم أحلاهه ، تنازل عن السفر ، وقرر أن يعمل في الميناء ، حتى لا يغيب عن زغدانة .

غير أنه لم يكن يعلم ما يخبئه له القدر ، لم يكن يعلم أنه سوف يسافر مرغماً . . . وأن قصته في لوح القدر ، كانت تسير في طريق آخر !

الصورة الرابعة

نستطيع أن نقول ، دون أن نبالغ في القول ، إن القصة الحقيقية، قصة زغدانة ومندي ، قد بدأت في ذلك الصباح الذي طلبت فيه زغدانة من مندي أن يعمل لأنها لا تحب أن تتزوج عاطلاً . .

كان مندي نشوان بكل هذا الذي حدث بينه وبين حودة من ناحية ، وبينه وبين زغدانة من ناحية أخرى . ولقد انطلق ذلك اليوم إلى أرصفة الميناء يدفعه ذلك الحماس الطاغي الذي يسري في عروق الرجل إذا ما أحس أن امراته تريد منه شيئاً . . . غادر رصيف النورس ومضى لا يلوي على شيء،وإن كان قد ألقى على السفينة الإنجليزية نظرة خاطفة . وطافت بخياله أشياء اقشعر لها بدنه ، غير أنه طرد الوساوس من رأسه ، ومضى في طريقه دون أن يدري أن زغدانة هي الأخرى ، قد سقطت في بئر الحيرة .

« ما لك يا بت ؟! » .

هكذا سألتها أمها فردت :

« مفيش يا امة . حضري طلبات الواغش أحسن كانوا بيندهوا عليّ !! » .

وصاح الكومي من حيث كان يجلس :

« اتأخرتي ليه يا زغدانة في المركب ! » .

« آني ما اتأخرتش في المركب يابا ؟ » .

« أمال كنتي فين ؟! » .

« هـه ؟! » .

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتردد فيها زغدانة في الرد على سؤال كهذا . . . ولذا فلقد تبادل الكومي مع زوجته نظرة ذات معنى . مسح الرجل عينه المصابة وتحـرك متململاً في مكانه . وأعاد سؤاله في إلحاح . فانفجرت زغدانة :

« كنت مع الوله مندي ؟! » .

صاحت الأم :

« إنت إيه عبارتك مع مندي يا زغدانة ؟! » .

« عاوزه نتجوزه ! » .

هكذا كانت زغدانة دائماً . هكذا كانت . تعبر عن نفسها ببساطة بالغة ، وتقتحم المعاني دون وجل . وساد الصمت في الكـوخ الصفيحي . وأزت ذبابـة راحت تـدور فـوق الـرؤوس صـانعة ذلـك النوع الخـانق من الضجيج . غيـر أن أحداً من الثـلاثة الـذين كانـوا هنـاك لـم يعـرها أي اهتمـام ، ووجدت الـذبابـة لنفسها مخـرجاً في ثقب كـانت أشعة الشمس تتسلل منه . . .

« الطلبات يا امه ! » .

قال الكومي لابنته .

« هو اللي قال لك ؟! » .
« لأ . . آني اللي قلت له ؟ » .

خبطت المرأة على صدرها الهائل المكتنز باللحم :

« قلتي له إيه يا للي تنشكي في لسانك ! » .
« قلت له إني بنحبه وإني مانحبش نتجوز عواطلي !! » .

هكذا ، بوضوح ، ودون لف أو دوران ، طرحت زغدانة الأمر ، فعاد الصمت مرة أخرى ، غير أن الكومي قطعه وهو يدس تحت لسانه قطعة من المخدر الأسود الذي تعود عليه منذ ما حدث له الذي حدث . . .

« حضري لها الطلبات يا أم زغدانة ! » .

وكانت المرأة تعلم زوجها حق العلم ، لذا فلقد رفعت الأبريق الكالح اللون وراحت تصب الشاي في الأكواب القذرة ، بينما أخذت زغدانة تفرغ في الأكواب كمية من السكر تكفي لكيلا يتذمر أحد من الزبائن . . . ما لبثت أن حملت الصينية ونهضت مغادرة المكان .

* * *

ما هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى وجد مندي وظيفة شاغرة في قهوة شلوفة . وعندما مال الفتى على المعلم شلوفة هامساً في أذنه بأنه « على باب الله » ، حتى استدار الرجل نحوه ورفع حاجبيه الكثيفتين وراح يحملق فيه غير مصدق :

« انت يا مندي عاوز تأكل لقمة ؟! » .

« بالحلال ! » .

« إشمعنى ؟! » .

« أصلي ـ لا مؤاخذة يعني ـ ناوي نتأهل ! » .

جلجلت ضحكة الرجل في سعادة حقيقية ، فلقد كان المعلم شلوفة صديقاً لأبي مندي ، وكثيراً ما أبدى الأب قلقه لأن « الواد » يحب الصياعة ولا يفكر في العمل أو الزواج ، وكثيراً ما قال شلوفة لصديقه أن الأوان سوف يأتي لا ريب في هذا ، ولقد صدق حدسه ، فضحك ، وكانت ضحكته عالية حتى التفت كل الزبائن من الصبادين وعمال الميناء . وكانوا في مثل هذا الوقت قليلي العدد فهؤلاء هم تسيئو الحظ الذين لم يجدوا في الصباح عملاً فراحوا يقضون يومهم بلا عمل أو في انتظار عمل !

« وله يا سلامة ! » .

وقفز سلامة الأعرج ، جرسون المقهى ، من حيث كان عند النصبة ، مخترقاً الموائد والمقاعد والدكك وهو يصيح بصوت منغم :

« عنيه يا معلمي ! » .

« خد مندي وعلمه الصنعة ! » .

« يا ألف مرحب ! » .

قالها سلامة بمرح مصطنع ، وخوف حقيقي على لقمة

عيشه . . . والمسألة بالنسبة لسلامة هو الآخر كانت عويصة ، فهو أعرج منذ ولدته أمه ، لا يدري سبباً لعاهته ولم يسأل ، تلطم في كل حرفة وكل عمل حتى استقر مع المعلم شلوفة منذ خمس سنوات مات فيها أبوه وأصبح هو العائل الوحيد لأمه وأخته . . .

« تعالى يا مندي معايا ! » .

لكن مندي لم يشعر بما كأن يدور في خيال سلامة من خوف عربيد على لقمة عيشه . . . فانظلق معه تدفعه حماسة بلا نهاية ، ووقف يرقب يدي سلامة الحاذقتين وهي ترتب الصواني والأكواب وتغسل الملاعق ، ويستمع إلى صوته وهو ينادي على الطلبات . . .

تقدم مندي ليساعد سلامة ، ونجح . . . من يومه الأول نجح ، وأصبح من السهل عليه أن يحمل الصينية ، في آخر النهار وقد امتلأت بالأكواب ، وأن يهرول بها هنا وهناك ، وأن ينادي ويلعلع وينغم وكأنه ولد جرسوناً . . .

مندي لا يعرف من أين جاءته هذه الموهبة التي أدهشت المعلم شلوفة وأسعدته في نفس الوقت . . . وعندما نادى المعلم على مندي ذات لحظة :

« يا أسطى مندي ! » .

كان هذا إيذاناً منه بأنه قد ثُبت في عمله واعتُمد . . .

هرول إليه مندي دون أن يلحظ نظرات سلامة التي كانت

تنفث لهباً وخوفاً . . .

« أيتها خدمة يا معلمي ! » .

« نزل شاي على حساب المطرح للمعلم جابر ! » .

والتفت مندي فوراً إلى حيث تعود أبوه أن يجلس خارج المقهى ، على ذلك الصندوق القديم الذي أصبح وكأنه ملك له لكثرة ما جلس عليه واستراح ، وراح يحملق بعينيه النفاذتين في الأفق ، عبر الميناء وجبال السفن الداخلة والخارجة والراسية ، إلى مبنى باب البوغاز ، هناك ، عند التحام البحر العريض بالميناء الهادئة ، هناك ، حيث تتلاطم الأمواج وتضطرب صيفاً وشتاءوربيعاً وخريفاً . . . اندفع مندي إلى حيث النصبة صائحاً :

« واحد شاي على حساب المعلم للمعلم جابر وصلحه ! » .

قال هذا وهو يجذب صينية راح يجففها مما علق بها من مياه . ثم يختطف كوباً ملأ ربعه بالسكر ، وكوب مياه استقر فوق الصينية ، وحبل الشاي ينساب من البراد الكبير أسود اللون ذا رائحة نفاذة ، وما لبث أن اختطف الصينية وهرول بها حتى وضعها بجوار أبيه :

« مسا التماسي يا أسطى جابر ! » .

رفع الرجل عينيه النفاذتين إلى ولده :

« إزيك يا مندي ؟! » .

« **نحمدوه يابا !** » .

« **خلاص يا مندي ؟!** » .

تراجع منـدي خطوة وقـد أدهشته رنـة الحزن في صـوت أبيه !

« **خلاص إيه يابا ؟!** » .

« **نويت تكمل نص دينك من غير ما تقول لي ؟!** » .

خطف مندي نظره من خلال الجدار الزجاجي للمقهى إلى حيث كـان المعلم شلوفة يجلس خلف البنـك العالي جلستـه التي تبديه وكأن قاعدته قد التصقت بالمقعد إلى الأبد ، وتذكر كل شيء وارتبك .

« **يابا . . .** » .

« **من غير ما تقول لي يا مندي ؟!** » .

« **ما هو آني يابا كنت . . . . . .** » .

« **من غير مانفرح بيك أنا وأمك يا وله ؟!** » .

« **يابا ومقام المرسي آني كنت . . . .** » .

وتـوقف مندي مشلولاً أمـام نظرات أبيـه . تلك النظرات الغـريبـة النـافـذة التي تحمـل في أعمـاقهـا آلاف المشـاعـر المتضاربة والتي تحولها إلى شيء مخيف .

« **حقك علي يابا . غلطة ومش حاتعود !** » .

أدار الرجل رأسه إلى الناحية الأخرى قائلاً في اقتضاب :

« والا أنت . . . . » .

ووصلت الرسالة إلى مندي ببساطة . كان غضب أبيه قد طرده من البيت ، وأيقن في لحظة ، أنه أصبح بلا مأوى ، وأن عليه أن يبحث عن مكان يبيت فيه . . . كان مندي يعلم من هو أبوه إذا ما قال شيئاً ، لذا فلم يجادل . . . استدار منسحباً عندما جاءه صوت أبيه :

« خد يا جدع ! » .

وتسمر مندي في مكانه . لم يعمل حساباً لمثل هذه المصيبة ، كان يعلم علم اليقين أن أباه عندما ناداه بيا جدع ، فلقد انقطعت بينهما الصلة حتى الأبد .

عاد إليه مدحوراً :

« نعم يا معلمي ! » .

« شيل الصينية دي من هنا وخلي سلامة هو اللي ينزل لي الطلب ! » .

في صمت ، انحنى مندي وحمل الصينية ، وفي منتصف الطريق إلى النصبة التقى به سلامة :

« إيه العبارة يا أسطى مندي ؟! » .

« المعلم جابر عاوز الطلب من إيدك انت يا سلامة ! » .

اختطف سلامه الصينية في فرحة لم يستطع إخفاءها . وربما ، لأول مرة منذ دخل مندي إلى المقهى ، يشعر وكأن

كابوساً قد انزاح من فوق صـدره . . . غادر المقهى إلى حيث كان المعلم جابر يجلس مقطب الجبين مهموم الملامح ، وكان يحجل راقصاً وهو يصيح :

« أحلى تماسي على أحلى معلمين في الشط كله ! » .

وضع الصينية وراح يقلب السكر غير المذاب في الشاي قائلاً :

« مساء الخير يا معلم جابر ! » .

لكن جابر لم يرد التحية .

وكان مندي ، في نفس اللحظة ، يغادر المقهى بعد أن اعتزل أول أعماله إلى الأبد !!

* * *

هذه هي دنياه . . .

هنا فقط يستطيع مندي أن يستريح ، داخل أنقاض السفن الخشبية والحديدية ، تحت ظلال أجسادها الصدئة وغابات القواقع والأعشاب البحرية التي التصقت بها . . . وكان الوقت غروباً ، والشمس تميل هناك ، عند نهاية الأفق ، لتصبغ لون البحر ، وأصوات طائر النورس تتصاعد في صرخات مرحة ربما ، أو غاضبة ربما ، وهي تبحث بعيونها عن الأسماك تحت سطح المياه . . .

هنا فقط ، أحس مندي أنه أمضى يوماً بلا حياة . . .

ورغم جسامة ما حدث بينه وبين أبيه ، إلا أنه كان ، وهو في هذا المكان ، يشعر بالراحة تغمره حتى النخاع . . . غير أنه سرعان ما استدار نحو باب البوغاز ، نفس المكان الذي ينظر إليه أبوه ، واجتاحت نفسه رغبة عنيفة في الرحيل ، يريد هو أن يتخطى هذا الحاجز إلى حيث الدنيا واسعة بلا حدود . أحلام العمر في النوم واليقظة معاً . . . فكيف ، كيف يستطيع ؟!!!

صكت أذنيه خطوات قدمين حافيتين ، فالتفت من مكمنه وعرف صاحبة القدمين . . . وقبل أن تصل إليه ، برز لها من تحت القارب المرفوع والذي كان قد قرر أن يتخذه بيتاً . . . قفزت زغدانة إلى الخلف محملقة فيه ، ارتسمت على وجهها ابتسامة سرعان ما ابتلعتها ملامحها لتنفث عيناها غضباً بلا حدود :

« كنت فين ؟ » .

« طب قولي مساء الخير يا زغدانة ؟ » .

« كنت فين ياللي ما تتسمى ؟! » .

« بنشتغل ! » .

توقفت غير مصدقة ! . . . تقدمت منه في بطء ، هبطت إليه فزحف إلى الداخل مفسحاً لها مكاناً فزحفت خلفه ، والتصق ذراعها بذراعه فاشتعلت في جسده النار !

« كنت بتشتغل فين ؟! » .

« في قهوة شلوفة ! » .

في استنكار رهيب قالت :

« جرسون ؟! » .

صفعته الكلمة فهتف :

« أمال إنتي بتعملي إيه ؟ » .

كالقطة المتوحشة استدارت نحوه :

« مالكش دعوه بيه ! » .

« وهو إنتي بس اللي ليكي دعوة بيه ! » .

انتفضت من مكانها استعداداً للرحيل في غضب :

« فتك بعافية ! » .

أمسك بذراعها ولم يدر أن قبضته كانت قوية :

« رايحة فين ؟ » .
« مالكش دعوة ! » .
« طب مش ناخد وندي ! » .
« سيب إيدي ؟ » .
« لأ ! » .

في لمح البصر كانت تميل بأسنان مشرعه نحو يده غير أنه كان أسرع منها ، كانت الدماء تتفجر في عروقه مزغردة . أمسك بشعرها في عنف ، رفع رأسها نحوه ، عيناها الخضراوان ترسلان إليه ذلك السحر الذي يذيب كل شيء ،

ويحوله هو ، إلى قطعة من العجين بلا حول ولا طول ، غير أن فمها المفتوح ، وأسنانها المشرعة كوحش يستعد للافتراس وشفتيها المكتنزتين دفعت به نحوها . فقط . اقترب منها مندي بوجهه ، وكان باسماً .

همست :

« سيب إيدي ! » .

أحس مندي بذراعها يستسلم لقبضته ، وبرأسها يترك نفسه لجذبته . . .

« أبويا طردني من البيت ! » .
« معاه حق ! » .
« علشانك ! » .

كان الليل قد ظلل الدنيا ، وصوت الحياة يصل إليهما مثل موسيقى حالمة . وكانا معاً ، راقدين في قاع القارب الذي جهزه مندي ببعض ألواح من أخشاب تجعل الرقاد ليناً ، وكانت عيونهما نحو السماء ترسل الأحلام في كلمات هامسة :

« آني مش عاوزاك تسافر ! » .
« طب ونشتغلوا إيه هنا ! » .
« الشغل للي يدور عليه ! » .
« وترجعي تقولي كاني وماني ؟ » .

هبت جالسه :

« آني اتأخرت ! » .

« وآني حانبات هنا ! » .

التفتت إليه . ونظرت إليه . وأحست زغدانة أنها ترى مندي لأول مرة في ضوء النجوم ، وأحست بما لم تشعر به أبداً . بذلك الفيض المخبف من الأحاسيس يجتاحها اجتياحاً . . . غير . . . غير أنها زغدانة ، وما كان ينبغي لها أن تفعل ما لا يجب أن تفعل . وفي لمح البصر ، كان جسدها يطير في الهواء قافزاً من فوق القارب إلى الرصيف . . . وسمع مندي في رقدته النشوى ، صوت قدميها الحافيتين وهما تخطوان فوق الأرض المبدورة ببقايا السفن . . . ثم ذابت الخطوات .

ولم تمض دقيقة .

ربما أقل .

ربما دقيقتان . . . حين اندبت في قلب مندي صرخة عاتية ملتاعة . . .

قفز واقفاً كالمجنون ، فهذا صوت زغدانة .

في الضلام لم ير شيئاً غير أن صرخة أخرى جاءته :

« يا مندي ! » .

وقفز في الظلام يتخبط بحثاً عن صوت زغدانة وقد ألم به الجزع حتى أصبح يرتجف .

الصورة الخامسة

هكذا تحدد مصير مندي في تلك الليلة الغريبة من ليالي الخريف في ميناء الإسكدرية فوق ذلك الرصيف الذي يُعرف حتى الآن ، ومنذ تلك السنوات البعيدة ، برصيف النورس . . . فما أن شقت الظلام صرخة زغدانة ، حتى قفز مندي من مكمنه كالمجنون بحثاً عنها . . . كان الظلام يسود كل شيء ، كل شيء ، لا ضوء إلا تلك الأضواء التي ترسلها السفن العابرة في بطء أو الراسية هنا أو هناك . . . انطلق مندي لاهثاً لا يلوي على شيء ، لا يعرف إلى أين يذهب ، فلقد عم الصمت مرة أخرى وساد ، ووجد مندي نفسه يتوقف كالمجنون قد شُل عقله تماماً . . . وزحفت عيناه ، دون أن يقصد ، نحو السفينة الإنجليزية الراسية على اليسار ، هناك . . . كان ثمة مصباح أزرق ينير سلم السفينة القصير ، وعند السلم ، كان واحد من الإنجليز يجلس ـ كالعادة ـ بجوار سلاحه ، وفي يده زجاجة خمر كان يرفعها بين الحين والحين إلى شفتيه وهو ينظر نحو الأفق . . .

اقترب مندي من السفينة الإنجليزية وراح يتحسس كل شيء بعينيه وأذنيه لكن شيئاً غريباً لم يلفت نظره ، هم الجندي

في مكانه ، وبلسان ملتو صاح وهو يضع يده فوق البندقية :

« جو أواي » .

هكذا كانوا دائماً ، ما أن يقترب أحد من سفينتهم الغامضة تلك حتى يصيحوا فيه أن يذهب بعيداً ، ولقد ذهب مندي بعيداً غير أن شيئاً ما كان قد برق في ذهنه ، ألم يطلب منهم هؤلاء الإنجليز الابتعاد عن السفينة ، كانت سفنهم الحربية تملأ الميناء وكان الرجال يبيعون لهم ويشترون ، كانوا يصيحون في المصريين أن يبتعدوا إذا ما ظهر القبطان بوجهه الأحمر وأنفه المتعجرف فوق ظهر السفينة ، غير أن هذه السفينة بالذات ، ومنذ أن جاءت إلى هنا ورست على رصيف النورس ، لم يكن فيها سوى هؤلاء الجنود القليلي العدد ، لم يكن هناك قبطان ولم تكن هناك حركة أو عمل . . . يظهر البعض منهم على ظهر السفينة ويختفي البعض الآخر في داخلها . . . ولكن أين زغدانة . ولم صرخت ؟!

أطلق مندي لساقيه العنان وراح يجري بكل قواه نحو عشة الكومي ، كان المصباح الغازي يرسل لهبه الواهن مع شريط نحيل مرتجف من الدخان عندما اقتحم مندي المكان على الرجل وزوجته . . . كانا راقدين متجاورين ، وكانت النار قد أطفئت . والأكواب قد صفت وهجع كل شيء . . . قفزت أم زغدانة جالسة في فزع :

« بسم الله الرحمن الرحيم . مين ؟! » .

« أنا يا خالتي أم زغدانة ! » .

كالفهد ، وبذراع واحدة ، كان الكومي قد قفز ممسكاً بتلابيب مندي في عنف أذهل الشاب الذي كان يرى في الكومي رجلاً أكتع أعور محطماً . . .

« إيه إللي جابك هنا يوله ؟! » .

« زغدانة يا عم كومي ! » .

صاحت الأم :

« ما لها زغدانة ؟! » .

« سمعتها بتصرخ على الرصيف طلعت نجري وندوز عليها لقيتها زي فص ملح وداب ! »

« يعني إيه الكلام ده ! » .

« زي ما بنقول لك كده ! » .

وهكذا انقلب الليل إلى نهار ، زحف الكومي ومعه مندي وأم زغدانة وكل منهما يطلب منه إعادة ما حدث ، قلبوا الرصيف رأساً على عقب ، نقبوا في كل مكان ، وركض مندي ليجمع الرجال ، حودة والرجال ، وامتلأ الرصيف بالخلق . بحثوا عن زغدانة في كل مكان ، ولهثت الأنفاس ، وتضاربت الأقوال . . واستقر الرأي على أن زغدانة قد غرقت في مياه الميناء !

* * *

لا أحد يعرف كيف طلع النهار . لا أحد فلقد إمتلأ الرصيف بالخلق ، بالرجال ، كل الرجال الذين يعرفون

النـورس وسفن النورس والكـومي وزوجتـه وابنتـه التي ألهبت مشـاعر الجميـع ، غير أنـه مـع طلوع النهـار ، ومـع شـروق الشمس ، كـانت زغدانـة تأتي من هنـاك ، من ناحيـة سفينـة الإنجليز ، كانت تأتي ممزقـة الملابس مهـوشة الشعـر حمراء العينين ، كـانت تزحف ولا تسيـر ، كانت منكسـة الـرأس لا تصيح في الرائح والغادي ، وكان أول من رآها هـو الكومي ، رآها بعينه الواحدة قبل الجميع ، صاح باسمها فالتفت بعض الذين كانوا من حوله ، وتراجع الذين كانوا يستعـدون للغوص في المياه بحثاً عنها ، وهرول الجميع نحوها . . .

« **إيه الحكاية يا زغدانة ؟** » .

« **إيه اللي حصل يا بت !** » .

« **ما لك يا ضنايا ؟** » .

« **يا بت انطقي !** » .

الجميع ، الجميع بـلا استثناء راحـوا يمطرونهـا بالأسئلة عدا مندي ، هو الوحيد الذي وقف متسمـراً في مكانـه ، وقد أحس وكـأن شرخـاً هائـلاً قد حـدث في صـدره فقسمـه إلى نصفين . . . وظلت زغدانة صامتة تحيطها تلك الكرة البشرية التي كانت تفتح أفواهها في أسئلة بلا نهاية ، حتى إذا ما رفعت زغدانة رأسهـا ، والتقت عيناهـا الخضراوين الـدامعتين بعيني منــدي ، حتى انفجـرت في بكــاء عميق ، وهي تهـوي إلى الأرض متمرغة في التراب وبقايا الحديد والحصى !

* * *

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال أو يعرف ، فلقد اختطف جنود السفينة الإنجليزية زغدانة ، وأبقوها معهم طوال الليل طوال الليل . طوال الليل .

* * *

قبل أن يتجمع الرجال ، وقبل أن تثور في صدورهم تلك الثورة التي يعرفها جنود الإمبراطورية البريطانية ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت الأوامر قد صدرت بإخلائه من المصريين جميعاً ، وكان مدخله الشرقي قد أغلق بحراسة مشددة . أما قمته المطلة على البحر ، فلقد رسا عندها لنش مسلح . . . وبات أهل الميناء تلك الليلة ، يحكون حكاية زغدانة !

* * *

قدر لمندي أن تبدأ حياته بداية جديدة في تلك الليلة المشؤومة ، وهو ، في ذلك الوقت ، وفي ذلك العمر ، لم يكن يدري ما الذي كان يمكن أن يفعله ، ولقد أمضى يومه وليلته وهو يضرب على غير هدى ، اختفت العشة الصفيح وهدمها الإنجليز ببساطة وألقوا بمحتوياتها ، بكل ما يملك الكومي للقمة عيشه ، إلى المياه . . . وأصبح الرصيف مهجوراً ، حتى تلك السفن التي كانت راسية عليه للإصلاح ، توقف العمل فيها وفرضت عليها الحراسة . . .

ذهبت زغدانة إلى حيث لا يدري مندي ، اختفت مع أبيها وأمها ، وقال البعض أنهم يسكنون مع خالتها في غرفة

واحدة ، وقال البعض أن المعلم جابر أخلى غرفة في بيته . . .
وقيل وقيل وقيل . . . ولكن ، لا أحد قد رأى مندي في تلك
الأيام ، فلقد اختفى الفتى هو الآخر فجأة ولم يعد يراه أحد ،
وتساءلت أم مندي عن ولدها ، وزمجر المعلم جابر الذي كان
قد أخلى غرفة بالفعل في بيته للكومي وابنته المنكوبة ، زمجر
ولم يرد على زوجته وإن كان الفأر قد لعب في عبه ، فها هي
الفتاة التي أجبها ولده وقرر الزواج منها تُغتصب علناً أمام
الجميع وأصبحت فضيحتها بجلاجل ، ولا أحد يعرف من
الفاعل ، فلقد اختفى الإنجليز الثلاثة الذين يقطنون تلك
السفينة الغريبة الصامتة ، اختفوا خلف أسوار الحراسة التي
فرضتها السلطة على الرصيف الذي أصبح خاوياً بعد أن سحبوا
كل السفن من حوله . . . زمجر المعلم جابر وإن كان خوفه
على ولده بدأ يتصاعد ، حتى لقد همس لبعض رجاله أن
يبحثوا عنه دون جدوى ، فلقد كان مندي وكأنه فص ملح وذاب
في مياه الميناء المترامية هنا وهناك . . . وراح خوف الرجل
يتصاعد كلما مرت الأيام . . . وبدأت الأقاويل والشائعات
تتناثر هنا وهناك . . . فأين ذهب مندي ؟! .

كان هذا هو السؤال الذي لم يعرف أحد له جواباً ، حتى
لقد سرت شائعة تقول أن الإنجليز قد اختطفوه هو الآخر وقتلوه
وأخفوا جثته في قاع الميناء بعد أن ربطوا إليها ثقلاً حديدياً
يمنعها من الطفو !!

* * *

غير أنه ما كان لـلأيام أن تمضي على وتيـرة واحدة . . .
فلقد أصبح اختفاء مندي شيئاً عادياً ، كما خرجت زغدانة إلى الحياة منكسة الرأس . . . كانت هي الوحيدة التي تعـرف أين ذهب مندي ، وكانت هي الوحيدة التي تعرف ما الذي حدث لـه ساعـة أن رآها ممـزقـة المـلابس مهـوشـة الشعـر منكسـة الرأس . . . وعندما كانت تغادر البيت في أيامها الأولى كانت تغادره مع أمها ـ بعد الغروب حتى لا تلتقي ولا يلتقي بها أحد ـ كانت تذهب مع أمها لزيارة قريبة أو صديقة ، لكنها في كل مرة كانت تعود ممزقة الأعصاب باكية ، كانت نساء الحي يعاملنها برفق وحنان معـاً . لكنهن أيضاً كن يخفين عنهـا بناتهن . . . وكانت الأم تعلم ، كما كان الأب يعلم ما يجري لابنتهما . . . حتى إذا جاء يوم بدا لهما وكأنه يوم الفرج . . . عنـدما تقـدم حودة ، بشهامة أكبرها فيه كل أهل الحي ، إلى الكومي يطلب يد زغدانة .

جلس حـودة على المقعد الـوحيد في الغـرفة بينمـا كـان الكومي جالساً تحت النافـذة القرفصـاء وهو يـرشف من كوب الشاي الأسود ويلوك في فمه مرارة المخدر الذي قال عنها أنها أخف من مرارة الدنيا . . .

« آني جاي نطلب القرب يا عم كومي ! » .

برقت عين الكومي الوحيدة وكانت الأم وزغدانة تجلسان خارج الغرفة عند الباب المغلق . . . نظر الرجل إلى الشـاب طويلاً وهمس بصوت زاحف :

« **عاوز زغدانة يا أسطى حودة ؟!** » .

« **على سنة الله ورسوله !** » .

« **انت عارف اللي حصل لها يا ابني !** » .

« **زغدانة بنت حتتي وفي عنيه الاتنين !** » .

« **وإذا جه يوم وعايرتها يا حودة ؟** » .

« **عيب تقول الكلام ده يا عم كومي !** » .

ساد الصمت بين الرجلين لثوان ، ثم رفع الكومي رأسه نحو حودة قائلاً :

« **طب سيبني نشاور العيال !** » .

« **وآني تحت أمرك !** » .

قال حودة هذا وقد انتهى من كوب شايه ووضعه جانباً ونهض مصافحاً الرجل مستأذناً .

غير أن زغدانة رفضت !

لم ترفض زغدانة كما تعودت الرفض ، بل رفضت باكية ، متوسلة . .
وكان الأمر بالنسبة للأب مخيفاً ، وبالنسبة للأم كارثة ، فمن أين يأتيان بعريس يستر ابنتهما التي اغتصبها الإنجليز . . . لم يكن حودة قد أخفى الأمر عن أصدقائه ، وكان الأصدقاء قد رحبوا بالخطوة ، وعارض أهله ، وعرف الحي في تلك الأيام معركة عائلية من تلك التي تصبح بين يوم وليلة حديث الجميع . . . ذلك أن رفض زغدانة قد شاع هو

الآخر ، وأحس حودة أن المسألة قد أصبحت مسألة كرامة ، وأنه لا بد وأن يتزوج زغدانة ، ذلك أن الجميع على رفض الفتاة بخجلها من عارها . . . وكلما أوغلت زغدانة في الرفض ، كلما أوغلت عائلة حودة في الاعتراض ، وسعى الأصدقاء بين هؤلاء وهؤلاء ، سعوا بالخير والإقناع ، خاصة عندما أعلن الكومي في المقهى الزجاجي ذات ليلة أنه سيزوج ابنته لحودة سواء رضيت أم لم ترض . وعندما دخل حودة إلى المقهى وقد قارب الليل أن ينتصف ، ناداه الكومي ، وقرأ معه الفاتحة أمام أهل المقهى جميعاً .

في تلك الليلة حددوا موعد عقد القران في الخميس القادم .

وفي تلك الليلة بلغ الحماس بحودة أن نهض مستأذناً لدقائق . ذهب إلى بيته واقتحم غرفته ، وفتح الدولاب ، وأخذ تحويشة العمر ، وصاحت أمه :

« رايح فين يا حودة ! » .

« حاندفع مهر زغدانة ! » .

وبدلاً من الزغرودة ، أطلقت المرأة صرخة عاتية وكأن عزيزاً لديها قد مات .

في المقهى ، دفع حودة للكومي أمام الجميع خمسة وعشرين جنيهاً مهراً غالياً لزغدانة ، ودفع الكومي للأسطى سيد النجار نفس المبلغ ليصنع لابنته سريراً ودولاباً وكنبة . . .

ووعده بتسديد باقي ثمن « الشوار » خلال الشهور القادمة . . .

وسهر الرجال في تلك الليلة في المقهى على فرح . إلا جابر ، المعلم جابر الذي كان يجلس منزوياً ، لا يعلم أين ذهب ولده ، ولا يعلم ما الذي آل إليه مصيره . . . كان ، كان قد تحول إلى قطعة من الصخر تربض فوق ظهر الأرض في انتظار نبأ مهول .

وقد وقع النبأ .

ففي يوم الخميس المحدد لزفاف زغدانة على حودة . . . كانت أمها ، وبعض الجارات ، قد لففن يديها وقدميها بالحناء رغماً عنها ، وكانت هي لكثرة ما قاومت وبكت وقطعت شعرها ولحم وجهها لطماً ، وبح صوتها صراخاً ، كانت قد استسلمت ، وبدا كل شيء في ذلك الصباح عادياً تماماً في الميناء ، لكن شيئاً غريباً بدأ يحدث . سيارات السلطة الصفراء تقتحم الميناء والأرصفة والجنود يملأون كل مكان ، والبوليس يقبض على كل الشباب والرجال بلا استثناء . .

يومها . . . عرف الناس أن الساكنين الثلاثة في السفينة الإنجليزية قد وجدوا قتلى في الصباح . . . وجدوا مذبوحين تماماً . . . . وجدوا أجساداً بلا رؤوس !!! . .

وهكذا دخل حودة في ليلة زفافه السجن مع عشرات من الرجال والشبان !!

وانقلب الفرح إلى مأتم . وعندما غربت الشمس كانت

كل البيوت تدمع لمصير رجالها وأولادها وشبابها . . . في تلك الساعة التي يهجع فيها كل شيء فيما بين غروب الشمس وآذان العشاء . . . دق الباب على الكومي وزوجته وابنته الحزانى ، وارتعدت المرأة . وصاحت :

« مين ؟! » .

وجاءهم صوت ، ما أن سمعته زغدانة حتى قفزت كالمجنونة نحو الباب وفتحته . . . وكان مندي هناك ، فهتفت زغدانة مزمجرة في غضب :

« كنت فين ؟! » .

خطا مندي إلى الداخل ، وقد بدا رجلاً مكتمل الرجولة ، وكأن عشرين عاماً قد مضت به في تلك الأسابيع القليلة التي مضت . خطا إلى الداخل ، وأغلق الباب وواجه الجميع قائلاً :

« كنت بناخد بتارك يا زغدانة ! » .

الصورة السادسة

اهتـزت الميناء من أقصاهـا إلى اقصـاهـا ، بـل اهتـزت المـدينة بـأسرهـا لهذا الحـادث الذي انقلبت لـه المحـافـظة وإدارات الأمن وامتلأت شوارع الإسكنـدرية بـرجال البـوليس الحربي الإنجليزي ، وسدت منافذ ، وسمح لمنـافذ بـالمرور منها ، وألقي في السجن بعدد لا بأس به من الشبـان المشتبه فيهم . . . لكن أحداً لم يفكر للحـظة واحدة ، أن صبيـاً مثل مندي ، في مثل سنه وعمره ، يمكن أن يقوم بهذا العمل الذي أطلقت عليه صحف تلك الأيام « إجرامي بشع !! » .

ولقد وقع الخبـر على الكومي وزوجتـه ، كما وقـع على زغدانة ، وقوع الصاعقة حقاً ، ذلك أن الثلاثة ، بعد أن كانوا واقفين في استقبال مندي ، جلسوا دون وعي منهم بالجلوس ، إنما هم جلسوا لأن سيقـانهم لم تقو على حملهم . . . كـانوا يعـرفون ، كمـا كان يعـرف الجميع ، نتيجـة هذا الـذي فعله مندي . . . وكان مندي لا يزال واقفاً في مكانـه بجوار البـاب حاد النظرات صلب الملامح ، والصمت يسود الغرفة الكابيـة الضوء . عندما جاء صوت زغدانة :

« عملت إيه يا مندي ! » .

ابتسم منـدي في مرارة أحس بهـا تتسلل إلى حلقه ، ثم قال :

« طب اعملوا لنا كباية شي نبل بها ريقنا ! » .

وهبت الأم ، على غير وعي منها تسأل :

« انت أكلت يا ضنايا ؟! » .

« من يومين ما نزلتش جوفي لقمة توحد الله ! » .

قفزت زغدانة فاصطدمت بأمها في منتصف الغرفة لكنها شقت طريقها إلى رجلها في لهفة لم تحاول أن تخفيها :

« قول لي عملت إيه يا جدع ؟! » .

حتى الآن لم ينـطق الكومي حـرفاً . كـان يجلس مسنداً رأسه إلى الحائط ، ناظراً بعينـه الواحـدة نحو الشـاب النحيل الصلب العود الواقف هناك أمامه ، والذي ذبح ثلاثة رجال من الجيش الإنجليـزي وأخفى رؤوسهم إمعـانـاً في التنكيـل بهم . . . كان صـدره يغلي بالمشـاعر ، ومن عينـه الـواحـدة الباقية كان ثمة بريق إعجاب ينبثق منها معلناً عن رضاء وسعادة وفخر . وعندما جاء صوته أخيراً ، جاء واضحاً أشد مـا يكون الوضوح :

« ما تقعد يا أسطى . واقف ليه ؟! » .

كانت الدعوة صريحة من رجل البيت ، كما كانت كلمة يا

أسطى إعلاناً لا يخفى عن احترام الأب للشاب الذي يريد الزواج من ابنته .

و . . . . وجلس مندي . .

و . . . وقدمت له أم زغدانة طبقاً مليئاً بالأرز تجمله قطعة من السمك المقلي البارد وملعقة صدئة .

و . . . وعندما كان مندي يلتهم الطعام إلتهام من لم يذق طعاماً منذ أيام ، كانت زغدانة تضغط كباس وابور الغاز حتى تزيد من شعلته ، وتغلي المياه ، وتصنع بيديها ، أحلى كوب شاي شربه مندي في حياته .

* * *

كان الليل قد أوغل والكل جلوس في مكانهم صامتين محملقين ذاهلين لما يحكيه مندي . . .

كانت البداية عندما شاهد مندي زغدانة وهي تغادر السفينة ممزقة الملابس مهوشة الشعر معتدى عليها . . . كان قد ظل طوال الليل كامناً في مخبأ من تلك المخابىء التي يمتلىء بها رصيف النورس ، والتي يصعب على أعتى الباحثين ، العثور عليه . . . كان هذا المخبأ هو غرفة الطعام في اللنش النصف غارق في المياه بجوار الرصيف ، وكانت المياه قد وصلت في تلك الكابينة إلى منتصفها وتوقفت هكذا منذ سنوات لا يدري لها أحد عدداً . . . وكان لتلك الغرفة نافذة مفتوحة تحت سطح المياه . . . اكتشفها مندي ذات يوم وهو يغوص بحثاً عن

القواقع البحرية من الجندوفلي وبلح البحر والريتسة ذات البطارخ الحمراء ، وجد أمامه كوة فنفذ منها ، غير أنه فوجىء بها وقد امتلأت بالمياه حتى منتصفها . . . فإذا ما جاء المد ، غرقت النافذة تماما . أما في أوقات الجذر ، عندما يختفي القمر من السماء ، فإن جزءاً يسيراً من النافذة كان يتعرض للهواء فيتجدد هواء الغرفة دائماً . . ومع الأيام ، كان مندي قد استطاع ، بلوحين تائهين فوق المياه ، أن يصنع لنفسه ها هنا مكمناً يرقد عليه ، ومخبأ يضع فيه كنوزه من صناديق السجائر التي كان يدخنها سراً لصغر سنه ، وبعض علب البوليبيف والجبن والمربى التي كان يحصل عليها من الجنود ذوي الوجوه الحمراء . . . هنا اختبأ مندي منذ أن رأى زغدانة ، ظل ليوم كامل ، يرقد في مكانه مبلل الملابس ، يحملق في الجدار المائل للكابينة والذي كان يصنع لعينيه سقفاً ، وكان كل ما يفكر فيه ، من الذي فعل هذا ؟! . . من من الثلاثة ؟!

كان ثمة « سارجن » غليظ الملامح غليظ الصوت لا يكف عن إيذاء المصريين وأمرهم بالابتعاد عن السفينة . . . وكان مندي يكره هذا السارجن بأنفه الأحمر وشفتيه الحادتين . . . وعندما مرت ليلة ، قرر أن يقتل هذا السارجن . . . وعلى هذا ، قرر الخروج من مكمنه ، لعله يجد لذلك طريقاً .

صمت مندي وهو يرقب الكومي وقد دس بين شفتيه سيجارة وحمل المشعل الصغير الذي يرسل خيطاً من الدخان كان يتكاثر في سماء الغرفة فيصنع فيها سحابة سوداء . وما أن

نفث الكومي الدخان من بين شفتيه حتى قال مندي :

« إديني سيجارة لا مؤاخذة يا معلمي ! » .

لمعت عينا الرجل وهو ينظر إلى الصبي الذي عاشره رضيعاً وطفلاً وصبياً ثم ها هو يراه رجلاً يقتل من يلمس حبيبته بسوء ، دس يده في جيبه وقدم لمندي سيجارة أشعلها هذا في شغف واضح ، ثم أسند رأسه إلى الحائط وراح يقص بقية ما حدث .

... ...

... ...

خرج مندي من الكوة سابحاً تحت سطح المياه دائراً حول اللنش استعداداً للصعود إلى الرصيف عندما فوجىء بما لم ينتظره على الأطلاق . . . كان الرصيف خالياً من البشر تماماً ، ولكن كان هناك جنود يبدون في ملابسهم العسكرية وكأنهم جاءوا من عوالم أخرى ، كانت أمنية مندي أن يذهب ذات يوم إلى بلاد الإنجليز ، أن يرى هؤلاء الناس وكيف يعيشون ، وهو ، ومنذ أن فتح عينيه على الدنيا ، يراهم قساة غلاظ القلوب يأمرون فيطاعون ، وينهون فيمتنع الجميع ، كان حقاً يريد أن يرى يلاد الإنجليز ، لكنه في هذه اللحظة أحس بأن مفاصله كلها قد تيبست وأصبحت عظامه وكأنها خاوية ، كان الضوء حول السفينة قوياً . والحراسة أقوى والأحاديث المتبادلة بالإنجليزية ، فماذا يفعل .

لم يجد مندي أمامه سوى العودة إلى مكمنه فعاد ! .

تبلغ ببضع من الطعام المخزون ودخن سيجارة لكن حلقه بدأ يجف فليست هناك مياه . . وعندما حل الظلام التالي كان العطش قد بلغ به درجة لم يعد في استطاعته أن يحتملها . . . غطس في المياه ونفذ من الكوة وأخرج رأسه وسبح في بطء في الاتجاه المخالف . . . كان هذه المرة يسبح نحو النصبة التي كان الكومي وزوجته قد صنعا منها مقهى صغيراً يبيعان فيه الشاي . . . وما أن وصل إلى مكانها حتى عرف كل شيء . . . فلقد هدمت النصبة ودمرت تماماً ، اقترب مندي من الرصيف ليلتقط أنفاسه فلمح إلى جواره ، فوق صخرة من صخور الرصيف ، صفيحة صدئة خيل إليه أنه يعرفها من قبل . مال عليها فوجد بها بعض المياه ، مد يده فغرف من المياه قليلاً وتذوقها بلسانه وكانت مياهاً حلوة . . . أمسك بالصفيحة وشرب كل ما فيها . .

بعد لحظات . . . كان ذهنه قد صفا . . . وعاد يفكر فيما أزمع عليه .

قبل أن يبدأ التفكير ، انطلق في الهواء طلق ناري ، تبعته عدة طلقات . . . ثم أصوات صيحات وأقدام تهرول ناحية مدخل الرصيف . .

لم يكن مندي يعلم ما الذي يسوقه إليه القدر ، غير أنه ، عندما توارى خلف جدار سفينة ورفع رأسه ليرى ماذا يحدث ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت فوهات بعض المترليوزات ما زالت تطلق طلقات إلى بعيد ، وابتعدت

الطلقات مع ابتعاد الجنود الذين كانوا - بالقطع - يطاردون أحداً . . . التفت مندي نحو السفينة ، ولم يجد فوقها سوى ذلك « السارجن » ذي الأنف الأقنى والشفتين الحادتين . . . وسرعان ما غطس في المياه ، وكما تسبح الضفدعة ، سبح مندي ، كان يعلم أن المشوار طويل ، وأنه كي يدور حول الرصيف ، ثم يصل إلى السفينة الإنجليزية على الناحية الأخرى ، لا بد له من بذل مجهودات غير عادية ، كان يعلم أن أي صوت يصدر عنه جدير بإرساله إلى عالم الأموات برصاصة تصيب رأسه . . . وكان يعلم أن عليه أن يتجنب الأضواء الكاشفة و . . . و . . . ولكن ذهنه خلا تماماً من كل شيء ، عدا هذا الهدف الذي راح يسعى إليه تحت المياه حيناً ، وأحياناً يرفع رأسه ، فقط ، كي يستنشق بعض الهواء .

ولا بد أن القدر كان يقف بجوار مندي في تلك الليلة ، ذلك أنه ما أن وصل إلى جانب السفينة وراح يبحث عن حبل أو سلم يصعد إليها عن طريقه ، حتى عاد اللغط إلى الرصيف ، وقد أمسك الجنود بحودة الذي بدأوجهه ملطخاً بالدماء ، ومن حوله كان عشرات الجنود يصوبون إليه بنادقهم ومسدساتهم ، وها هو حودة يسير وسطهم رافع الرأس صامتاً تماماً . . .

عند مدخل السفينة التفوا جميعاً حول حودة .

بعد دقائق جاءت سيارة البوليس المصري .

وفي تلك اللحظة ، رفعت يد خفية مندي إلى أحد الحبال، فراح يتسلقه كما الجرذان ، في سهولة ويسر ، وعندما أصبح

فوق سطح السفينة المشتعل بالأضواء كانت عيناه تبحثان عن مخبأ . . . ثمة باب هناك جرى إليه ، وكان يعلم أن آثار المياه المتساقطة من ملابسه وجسده سوف تظل إلى حين ، نفذ من الباب وهبط سلماً ضيقاً ، ما أن وصل إلى نهايته ، حتى وجد غرفة واسعة عرف فيها غرفة الطعام . وقف لثوان حائراً يتلفت هنا وهناك . ثمة باب على اليمين اتجه إليه وفتحه برفق فوجد نفسه في غرفة غريبة ، مليئة بالأدوات والعدسات والأنوار الملونة والآلات الغريبة . . . وكان يصدر عن هذا الجهاز الذي ملأ الغرفة بأكملها ، أصوات تأتي من بعيد ، وصفارات وأزيز . . . لكنه قبل أن يتحرك أو يفكر ، سمع صوت خطوات قادمة ، قفز قلبه بين ضلوعه ، وهتفت زغدانة مقتربة منه بحنان لم يعهده فيها من قبل :

« **حاسب يا مندي !** » . .

فابتسم مندي قائلاً أنه لم يجد مكاناً يختبىء فيه ، إن أي حركة منه كانت كفيلة بأن تشي بمكانه ، وقعت عيناه على « مفك » كبير ذي نصل حاد ملقى فوق أحد الأجهزة . . اختطف المفك وقفز إلى ما خلف الباب الذي فتح في عنف ودخل واحد من الثلاثة ، لم يكن هو السارجن ، هكذا قال مندي ، وانكب على الفور فوق أحد الأجهزة وراح يضبطه فتعالت الأصوات والصفير ، وضع الرجل سماعتين فوق أذنه واستغرق فيما هو فيه . . . استغرق تماماً ، حتى لقد خيل إلى مندي ، أنه ظل مستغرقاً في عمله ، حتى بعد أن نفذ المفك

كله في ظهره وكأنه لم يشعر به . . .

بعد لحظة استمع مندي إلى خطوات أخرى فأيقن أنه هالك . .

لم يدر ما الذي يمكن أن يفعله . فها هي الجثة أمامه ملقاة بلا رأس ، وها هو الرأس في يده ، وها هو صاحب الخطوات يقترب والباب يفتح ، ويخطو الرجل نحو الداخل ليفاجأ بمندي وقد حمل رأس زميله أمام عينيه ، كان الرجل هذه المرة هو السارجن الذي حملق في الرأس مذعوراً . واستبد الفرح بمندي عندما رأى هذا الذعر في عيني الرجل الذي كان يفتح فمه يريد الصراخ أو الكلام لكن مندي لم يعطه الفرصة ، فلقد انغمس المفك حتى آخره في صدر الرجل . فشهق . ومد يده نحو مندي فتراجع هذا ، ترنح . حاول أن يخطو فسقط على ركبته ، في لمح البصر مد مندي يده ليختطف المفك من صدر الرجل ، ثم . . . ثم يجهز عليه . .

عندما دخل الرجل الثالث كان غاضباً لتأخير زميليه ، ولم يكن من الصعب أن يجهز عليه هو الآخر . .

* * *

استطاع مندي أن يجد جوالاً وضع فيه الرؤوس الثلاثة . .

واستطاع ، بمزيد من الغل ، أن يدمر بعضاً من تلك الأجهزة الغريبة التي امتلأت بها الغرفة . .

كما استطاع أن يعود أدراجه دون أن يراه أحد ، فلقد كان

الإنجليز قد عادوا من مطاردتهم بشاب آخر أوقفوه بجوار حودة الذي كان الحديد يكبل يديه . .

وكانت رحلة العودة مفعمة بالراحة . هؤلاء بالذات هم الذين اغتصبوا زغدانة !!

« مش كده يا بت ؟! » .

قالها مندي بلهجة رجل صارم يسأل امرأته . . هزت زغدانة رأسها موافقة ! .

« فيه حد غيرهم ؟! » .

« لأ يا سي مندي ! » .

وكانت كلمة « سي » مندي هذه ، إيذاناً بموافقة العروس على أن تكون زوجة لهذا الرجل ! .

« طب والعمل ؟! » .

هكذا سأل الكومي ، فرد مندي :

« أنا رجعت بالروس الثلاثة وحطيتها في الكابينة ، الشوال باللي فيه ، وربطتهم تحت الميه كويس ! » .

« والمفك يا جدع ؟! » .

« عيب يا معلمي » . .

هكذا قال مندي وهو يرشف من الكوب الثانية للشاي ، وينفث دخان السيجارة الثانية . ثم استطرد :

« المفك معايا آهو ! » .

دس يده في عبه وأخرج المفك الطويل الحاد النصل .

فساد الصمت بين الجميع ! .

انقضى الليل في أحاديث متناثرة . . . اتخذ الأب قراراً بأن يبيت مندي معهم في نفس الغرفة ورفض اقتراحاً بأن تبيت زغدانة وأمها عند قريبة لهما . . . كان لا بد من الصمت والكتمان وإلا ضاع الفتى في لمح البصر . . . غير أن ثمة شيئاً كان يؤرق مندي طوال الليل : « ماذا عن الرجال الآخرين الذين ألقوا بهم في السجون ! » . .

قالت الأم :

« كل واحد ياخد نصيبه ! » .

وقالت زغدانة :

« طب وانت حاتعمل لهم إيه ؟ » .

وصاح الكومي :

« محدش عارف بكره حايحصل فيه إيه . . الصباح رباح !! » .

غير أن زغدانة عادت تسأل :

« طب وانت نويت على إيه يا مندي ! » .

في صوت واضح حاد الملامح ، قال مندي :

« حانطلع البحر ! » .

فساد الصمت . .

وكـان شيئاً غـريباً قـد زغرد في صـدر مندي بـألف فـرح وفرح . أنه لمح في عيني زغدانة دمعة ! .

الصورة السابعة

مضت أيام لم يغادر فيها مندي غرفة الكومي ، كان الرجل وزوجته وابنته يسعون إلى رزقهم بالتناوب ، وظل هو في الغرفة قابعاً لا يغادرها ، يستمع إلى الأخبار التي كانت ترد له من الخارج عن طريقهم ، وكان اللغط قد ساد الشاطىء كله حول اختفاء مندي ، وبلغ أبوه الشرطة عن غيابه ، قال البعض أنه القاتل ولذا فلقد اختفى ، وقال البعض أنه صعد على ظهر سفينة أبحرت قبل ليلة الحادث ، وقال آخرون أنه « هج » من الشاطىء بعد ما حدث لزغدانة . لكن أحداً لم يعرف حقيقة الأمر سوى الكومي وزوجته وابنته !

وحملت الأيام القليلة التي تلت ذلك مفاجآت بلا حصر ، فلقد أفرجت النيابة عن حودة وزميله ، أفرجت عنهما بعدما ثبت أنهما كانا في المقهى وقت وقوع الحادث ، واستشاط القائد الإنجليزي غاضباً ، وتحدث الناس عن زيارته للمحافظ ، وسيارته التي اقتحمت المبنى وفيها جنود مسلحون ، وخلفها سيارتان هبط منهما أكثر من عشرين جندياً . . . كان الإفراج عن حودة وزميله فرحاً اهتز له الشاطىء اهتزازاً ، غير أنه ـ في نفس الوقت ـ بعث بالخوف إلى قلوب

الشباب من أهل الشاطىء ، فلقد كانوا يعلمون علم اليقين أن الدور سوف يأتي عليهم إن آجلاً أو عاجلاً ، ولذا ، فلقد صحا الشاطىء ذات صباح ، ليجد الناس أن كل الشباب ـ بلا استثناء ـ قد هجروه إلى حيث لا يدري أحد .

* * *

ولم يكن أحد يدري أن أهل الإسكندرية جميعاً سوف يغادرونها بعد أسابيع قليلة ، فلقد اندلعت الحرب العالمية الثانية . . . ورغم الأحاديث الكثيرة عن الحرب التي سبقت إعلانها ، فإن أحداً من أهل الشاطىء لم يتصور ـ لكثرة ما قيل عن هتلر وتشمبرلن وموسوليني وغيرهم من تلك الأسماء التي بدت للناس في تلك الأيام وكأنها آلهة تتحكم في كل الدنيا ـ ولم يتصور أحد أن الحرب ستقوم ، ولكنها قامت . وفوجىء الناس بالطائرات ذات الأزيز المتقطع ، وهي تلقي بالحمم من السماء لتهدم البيوم وتقتل الناس وتدمر السفن وتفعل بالبشر ما كان يتصور البعض أنه حلم . .

ومثل جميع أهل الشاطىء ، قرر الكومي أن يرحل عن الإسكندرية إلى إحدى القرى مع زوجته وابنته . . . لكن مندي قال : « لأ ! » .

وحتى اليوم ، ورغم مرور كل تلك السنوات ، لم يدر أحد لم قال مندي : لا . . . حتى مندي نفسه لم يدر لم قال : لا . كانت المدينة قد امتلأت بالدبابات والسيارات المصفحة ، كانت تبدو لمن بقي فيها من أهلها وكأنها مدينة

خرافية تسكنها الأشباح والجنود ، يمضي نهارها آسناً بلا عمل ولا حركة ، ولا صوت سوى السيارات والدبابات وأوامر جنود الإمبـراطوريـة وهم يمنعون هـذا ويمنحـون ذاك . . . ويـأتي ليلها ، كل ليلة ، بـالجحيم ينصب على البشر من السمـاء ، وأصوات الانفجارات والطلقات والصرخات ، ولهيب النيـران يندلع هنـا وهناك ، والأخبـار تترى عن أمـاكن هدمت ، وعن معجزات حـدثت . . . غيـر أن أشهـر تلك الحكـايـات على الإطلاق ، كانت حكـاية « سيـدي أبي الدرداء » الـذي يقسم البعض ، أنهم شاهدوا القنبلة وهي تهوي مزغردة من السماء ، وإنه ـ سيدي أبي الدرداء ـ الراقـد في مقامـه هذا حيث يـدور الترام من حوله وينحنيء الشارع احتراماً له . . . شاهـدوه وهو يخرج من القبر ليلتقط القنبلة بيديه ، ثم يوسدها الطريق دون أن تنفجر !

عشـرات ، هؤلاء الذين شـاهـدوا القنبلة الملقـاة بجـوار المقام في أمان ، وعشـرات غيرهـم نقلوا الأخبـار ، وعشرات غيـر هؤلاء وأولئك شـاهـدوا خبـراء المفـرقعـات وهم يخلون المنطقة ، ويرفعون القنبلة بعد أن نزعوا مفجرها .

حكايات وحكايات ، ولقـد تأخـر الكومي وزوجتـه وابنته كثيراً عن الرحيل حتى لم يبق في الحي عداهم سوى عدد قليل من الصيادين أرسلوا عائلاتهم إلى ريف مصر ومدنها الآمنة ، وفضلوا هم البقاء على الشاطىء لا يغادرونه . .

لكن الكومي رحل مع زوجته وابنه أخيراً !

قال مندي : « طب مش نكتبوا الكتاب يا معلمي قبل ما تتوكلوا ؟! » .

وساد الصمت الغرفة .

كان الوقت عصراً عندما انتهى الحديث إلى أن هذه هي الليلة الأخيرة التي سوف يقضيها الكومي في الإسكندرية . . . وعندما ساد ذلك الصمت كانت عينا مندي معلقتين بعيني زغدانة . ولم ترخ زغدانة عينيها أمام عينيه كما تعودت أن تفعل منذ أن قتل مغتصبيها ، ومنذ ذلك الحادث وزغدانة تشعر في أعماقها أن ثمة شيئاً قد شرخ في صدرها أو انكسر في نفسها ، ثمة شيء غريب كان قد حدث في قلبها ، أحست ، بعد ما حدث ما حدث ، أنها لم تعد تقوى على الحياة ، ولم تعد تحبها ، شيء مخيف تغير في داخلها كان يدفعها ليل نهار لأن تفكر في الموت . . . ولولا وجود مندي ، ولولا نظراته تلك الحانية التي كان يغمزها بها ، لكانت الدنيا قد أصبحت ظلاماً يكتنفه الظلام من كل جانب ! .

بعد ساعة عاد الكومي من الخارج لاهثاً ، لم يجد في المدينة كلها مأذوناً واحداً !

قال مندي :

« خلاص . نيجي معاكم مطرح ما انتم رايحين ، نكتبوا الكتاب ونرجع تاني ! » .

قال الكومي :

« وهو إحنا عارفين إحنا رايحين فين ؟! » .

« كلها بلاد الله ! » .

« طب ما نقسموا البلد نصين ! » .

« انت مش عاوزاني نيجي معاكوا ليه ؟! » .

وهتفت زغدانة كالقطة المتوحشة لأول مرة منذ زمان طويل :

« ولما حد يشوفك من اللي مايتسموش ! » .

« كل الخلايق بتشوفني دلوقت ! » .

« اللي بيحصل هنا غير اللي هناك ؟ » .

وكان هذا حقاً ، فإن الناس قد نسوا قصة الجنود الثلاثة الذين قتلوا ، ورحل القائد الإنجليزي ، وتغيرت معالم الدنيا في أسابيع قليلة ، وأصبح مندي يخرج ويدخل دون أن يثير هذا انتباه أحد . كان أبوه قد رحل مع أمه وأخوته ، وكان قد علم من بعض الذين صنعوا من أنفسهم جسراً بين « المهاجرين » ـ كما أطلق عليهم أهل القرى والمدن الصغيرة ـ وبين الذين بقوا في المدينة ، كان قد علم أنهم استقروا في قرية اسمها « صفط الملوك » .

هناك . . . في تلك القرى والمدن الصغيرة ، كان أهل الإسكندرية قد استقروا يلتقطون رزق يومهم بالأسنان والأظافر . وتخصصوا في بيع « الحليب » وقلي « الفلافل » وكثير من المهن التي كانت تعرفها تلك القرى أو لا

تعرفها . . . وكانت أغلب العائلات تعيش بلا رجال ، ذلك أن الـرجال الـذين كانـوا مرتبـطين بوظـائف حكوميـة كان عليهم الافتـراق عن ذويهم لكسـب القـوت حـتى ولـو بـقـوا في الإسكندرية ، كان مندي يعلم علم اليقين أنه سوف يلتقي بمن يعرفه ، وأضاف الكومي بأن أحداً لا بد وأن يبلغ أباه لأن مسير الحي أن يلتقي ، وصـاحت زغدانـة أنه قـد يلتقي بواحـد من جنـود الإمبراطـورية فيعـاوده الحنين إلى القتل ، وأضـافت أم زغدانة ، أن أولاد الحرام في هذا العالم كثيرون ، وأن أحدهم قد يبلغ عنه !

كانت الحقيقة غير هذا تماماً . فإن أحداً لم يذكر مندي بعد الحادث ، ولا حامت حوله الشبهات ، ولم يفكر إنجليزي أو مصري في القبض عليه . . . ورغم الحادث وبشاعته ، فإن اختفاء مندي علل بين أهل الشاطىء جميعاً ، بالخلاف الذي نشب بين منـدي وأبيـه عقب إعـلانـه رغبتـه في الـزواج من زغدانة . . . ولكنه الخوف الغـريب الكامن في صـدور هؤلاء الأربعة . ذلك الخوف الذي سببه أنهم هم فقط ، يعرفون أن مندي هو القاتل ! .

* * *

« **خلاص يا معلمي . . نقروا الفاتحة !** » .

لم يـذكـر الكـومي ، ولا منـدي ، ولا زغـدانـة ، ولا أمها . . . تلك الفاتحة التي قرأها الكومي مع حودة في المقهى

أمام الجميع . . . كانت الأحداث قد شغلت الناس عما كانوا فيه ، وكان حودة قد هاجر مع من هاجروا وكأنـه ـ بعد القبض عليه ـ قد نسي هو الآخر حكاية الفاتحة التي قرأها ـ شهـامة ـ مع الكومي . . .

وقرأ الرجلان الفاتحة . وقال الكومي :

« **خد زغدانة وانزلوا اتمشوا على البحر شويه !** » .

وهتفت أم زغدانة :

« **بس ابعدوا عن الميناء يا ابني !** » .

ومشطت زغدانة شعرها ، وارتدت ذلك المنديل ذا اللون الأصفر الذي تـزينه وردات من خيط ملون . وارتـدت جلبابـاً نـظيفاً ووضعت في قـدمها شبشبـاً كانت أمهـا تحتفظ به منـذ سنـوات لتهديـه لها ليلة الـزفاف . . . وانـطلق الخطيبـان إلى الطريق .

في تلك البقعـة المسمـاة بـالأنفـوشي ، شـبــاطىء رملي ضيق ، تضرب الأمواج حوافه في رفق مهمـا علت . ذلك أن صخرة رأس التين ، حيث يقوم قصر الملك هناك شامخاً مظلماً كما هي العادة في أيام الحرب . . . في تلك البقعة المهجورة الآن تقريباً ، وعلى هذا الشاطىء الذي افتقد أرجل الناس وهم يسعون إلى رزقهم أو يتنسمون هواء العصر الندي . . . جلس مندي وزغدانة ليضعا دستور حياتهما الجديد .

« إيه اللي انت نويت عليه ؟! » .
« ماني قلت لك . حانطلع البحر ! » .
« وليه ماتجيش معانا ؟! » .

حملق مندي في زغدانة باسماً . كانت هي هي التي صاحت فيه منذ أقل من ساعة خوفاً عليه من أن يراه أحد أو يشي به أحد . . . وأرخت زغدانة عينيها ، وتلاعبت أصابعها برمال الشاطىء وغمغمت بعد أن اكتشفت خطأها :

« آني عارفة بقى ! » .
« حانوحشك يا بت ؟! » .

ورفعت زغدانة عينيها إليه ، لم تنطق حرفاً ، ولم تتفوه بكلمة . ولكن كل خلجة في وجهها كانت تصرخ بآلاف الكلمات ، وتجمعت هذه الصرخات في دمع راح ينهمر فجأة من عينيها بغزارة . . وذهل مندي ، ذلك أنه لم يكن يتصور أن زغدانة من الممكن أن تبكي أبداً . ولكنه برغم ذلك كان سعيداً كل السعادة ، ولقد أدهشته سعادته دهشة بالغة . . . ها هي زغدانة تبكي ، وهو يحب زغدانة ، يحبها حتى القتل ، فكيف يسعد لبكائها ؟!

« آني حانكسب لي قرشين ونحوشهم ونرجع لك ! » .
« البحر مالوش أمان يا مندي ! » .
« ومن إمتى البحر كان له أمان يا بت الناس ؟! » .
« بس الأيام دي فيه غواصات وطيارات وحرب ! » .
« والأيام دي بيدوا للنفر جنيه في اليوم ! » .

« آني مش عاوزه فلوس ! » .
« وآني مش عاوزه ندخل السجن وننشنق ! » .

عادت ملامحها إلى الارتجاف من جديد . راحت تحملق فيه لثوان :

« حاتغيب علي يا مندي ؟! » .
« قولي يا رب ! » .
« حاتبعت لي جوابات ؟! » .
« مش لما نعرف عنوانك ! » .
« يا دي الحوسة . . دنية إيه دي ! » .

هكذا صرخت زغدانة فجأة . وهكذا انفجرت في بكاء مرير ، لقد اكتشفت في لحظة غريبة ، كما اكتشف مندي ، أن عليهما أن يفترقا . لا إلى حين معلوم ، ولكن إلى ما لا يعلم إلا الله . . .

« زغدانة ! » .

من بين الدموع والشهقات جاءه صوتها نائحاً :

« أصلي بنحبك يا بن الناس . بنحبك أكثر من عنيه ! » .

وعندما كان آذان العشاء يأتي من بعيد يرسله شيخ في زاوية رفض أن يغلقها ويهاجر مع من هاجروا ، وكان يؤذن لمدينة خالية ، ويصلي وحده ، في ذلك الوقت من ذلك اليوم ، امتدت يد مندي لتقبض على يد زغدانة . وعلى الفور ، سرت في جسده رعشة ، وأحس بالنيران تلتهم كل

أوصاله . . . وأغمضت زغدانة عينيها ضائعة ، ووجد مندي نفسه يميل إلى الأمام ، لم يقصد إليها بل جاءت وحدها تلك القبلة الغريبة الدافئة التي جمعت الشفاه لدقائق لا يدريان كم طالت . لكنهما أفاقا . .

وكان لا بد لهما أن يفيقا .

كانت الرمال مبللة بالمياه . . وكان الليل حالك الظلام . .

في صبيحة اليوم التالي ، رحلت العائلة وكان الوداع قصيراً . .

ركب الجميع الترام الخالي من باب ستة حيث ينتهي شارع وكالة الليمون .

وهبطوا من الترام في « محطة مصر » ، ووجدوا لأنفسهم مكاناً في إحدى عربات الدرجة الثالثة ، وكان الكومي قد قطع ثلاث تذاكر إلى بلدة تدعى « كفر الزيات » ، لم يدر لم اختارها . ولم تسأله زوجته عن سر اختياره لها . . . ولم تفكر زغدانة في الأمر نهائياً .

تحرك القطار مختفياً في الأفق . .

وبقي مندي وحده في المحطة لساعات . جالساً ، لا يفكر ، ولا يعيش .

كانت زغدانة قد رحلت إلى بعيد .

وكان عليه هو أن يرحل إلى ما هو أبعد ! .

الصورة الثامنة

مضت بضعة أيام قبل أن يشعر مندي بالوحدة ، أيام قليلة تلك التي مرت كان يبيت فيها في غرفة الكومي دون أن يسأله أحد أجراً عن شيء ، كانت المدينة قد أصبحت مهجورة ، لا أحد هناك سوى الموظفين الذين اضطرتهم وظائفهم للبقاء وحدهم بعد أن سافرت عائلاتهم في هجرة بددت أهل المدينة في جميع بلدان الوجه البحري وقراه . . . وكانت الغارات تنهال على المدينة في عنف بالغ فتدمر البيوت والعمارات وتخرب الشوارع ، ويوماً بعد يوم ، تعود الناس على هذا ، تعودوا على صوت صفارة الإنذار ثم أزيز الطائرات الألمانية المتقطع ، وصوت المدافع المضادة السريعة . . . بل وصل الأمر إلى الحد الذي جعل الناس خبراء في أصوات الطائرات وماركاتها وأصوات المدافع وأنواعها . . . غير أن مندي ، وقد أصبح من الصعب عليه أن يظل مختبئاً حتى الأبد ، اكتشف أيضاً أن أحداً لم يكن يبحث عنه ، وأن حكاية الإنجليز الذين ذبحوا قد طويت في الأوراق ودثرتها أنقاض الحرب ، في البداية كان حريصاً على الخروج قبل الغروب ليتسوق ما يلزمه من طعام . ولقد أغلقت مقهى شلوفة أبوابها ، وعزت كباية الشاي وأصبحت نادرة ، وشحت النقود في يد مندي وكاد

يصبح مفلساً تماماً عندما خرج ذات نهار يبحث عن رزق . . . ولم يكن يعرف لنفسه طريقاً غير الميناء .

استطاع أن ينفذ من باب جانبي حتى يبعد عن الجنود ، غير أنه ما كاد يستقبل الرصيف الذي اكتظ بجنود الإمبراطورية وسفنهم وسياراتهم ورطانتهم ، ما كاد يفعل هذا حتى واجهه الشاويش عبد العزيز . . . ولوهلة ، كاد مندي يطلق لساقيه الريح لولا نداء عبد العزيز . . . لم يكن نداء من هذا النوع الذي يخشاه المجرمون من جنود الشرطة ، وإنما هو نداء صديق مغموس في حرارة الشوق :

« مرحب يا شاويش ! » .

« انت فين يا بني ! » .

« بنلقط رزقي » .

« ده أبوك وأخواتك هاجروا من غير مايشوفوك » .

قالها عبد العزيز في عتاب شديد فخفض مندي ه :

« معلش يا شاويش » .

« أبوك دور عليك في كل حتة ! » .

« ما هو اللي ماكانش . . . . » .

« ماكانش إيه يا جدع . هو أبوك لما يقول لك آني مش عاوز نشوفك ، يبقى برضك مش عاوز ؟! » .

« ما هو . . . . » .

« على العموم إذا حبيت تشوفه . حاتلقاه فاتح دكانه مانيفاتورة في كفر الزيات ! » .

« كفر الزيات ؟! » .

هكـذا هتف منـدي وكـأنـه يقتلع قلبـه . قـال الشـاويش عبد العزيز :

« انت رحتها قبل كده ؟ » .

« ولا عمري شفتها ! » .

« على العموم لما توصل حاتلقى ألف مين يدلك ! » .

صمت مندي منكساً رأسه . . .

« ما لك يا وله ؟! » .

« أصلي بندور على شغلانة ! » .

« الشغـل على قفا مين يشيـل . دول مش لاقيين حد في البلد ! » .

« طب ماتدلني على شغلانة يا شاويش ! » .

« وانت إيه اللي يقعدك هنا ! » .

« أصل . . . » .

« يـا بني الغـارات مش مخليــه النــاس تعيش والبمب والطوريد مالهمش عينين ! » .

« ما هو . . . . » .

« روح كفر الزيـات لأبوك واقف معـاه في الدكـان خليه يدعي لك ! » .

« آني عاوز نطلع البحر ! » .

بـدأ الشاويش عبـد العزيـز في تلك اللحظة وكـأنـه رأى شيئـاً

مفزعاً . همس :

« **بحر ؟!** » .

« **أيوه !** » .

« **بحر إيه يا بني !** » .

« **أهو آني بقى عاوز ننزل الميه !** » .

« **دي المراكب اللي بتطلع ما بترجعش !** » .

« **الأعمار بيد الله !** » .

« **وليه يا بني الناس ما . . . .** » .

« **تقدر تساعدني ؟** » .

« **أبوك يتقهر عليك !** » .

« **ربنا يجيب العواقب سليمة !** » .

« **يا بني اهتدي بالله !** » .

« **وإذا حلّفتك بالمرسي ؟!** » .

صمت عبد العزيز طويلاً، وأشعل سيجارة نفث دخانها في وجـه مندي. ثم زفـر زفرة طـويلة وهو يقـول: «**تعال ورايـا!**».

* * *

لم تكن الميناء ، بعد تلك الأسابيع القليلة التي مضت ، هي الميناء التي عرفها مندي . كان كل شيء قد تغير ، ومعظم الرجال قد هجروا أعمالهم وهاجروا إلى قرى مصر هرباً من المـوت المقذوف كـل ليلة من السماء كـأنه غضب من الله ، وكان الوجه الأحمر هو الوجه السائد في الميناء ، وجه جندي الإمبراطورية الذي يضرب في الأرض وكأنـه ملكها ومـا عليها

ومن يسعى فوقها . . . كان الطريق طويلاً من باب ستة حتى باب ١٤ حيث تقف السفن التجارية وسفن الركاب ، وكان لا بد من تبادل الحديث :

« لكن انت كنت فين المدة دي كلها يا جدع ؟! » .

بدأ عبد العزيز يعامل مندي على أنه رجل فخلع عليه لقب جدع . رد مندي :

« من بلاد الله لخلق الله ! » .
« دي ماكانتش كلمة اللي قالها المعلم ! » .
« معلش . كل شيء نصيب » .
« فيه مركب يوناني مضروبة طوربيد بيصلحوها في الحوض الجاف ! » .
« كارجو والا باسنجيري ؟! » .

كان يقصد إن كانت السفينة بضاعة أو ركاب ! . رد عبد العزيز :

« مابقاش فيه مراكب باسانجيري اليومين دول ! » .
« خالص ؟! » .
« واللي فضل منها السلطة خدته وعملته كارجو ! » .
« فيه شغل ؟! » .
« واليومية تلاتة جنيه ! » .
« حتة واحدة ؟! » .

« سمعت عن اللي حصل بعد انت ما هجيت من البلد ! » .

« خير ! » .

« واحد ابن حلال طلع المركب الإنجليزي اللي كانت واقفة على رصيف النورس وجز رقابي ثلاثة عساكر ! » .

دق قلب مندي بعنف . وجاء صوته مشروخاً وهو يقول :

« مين اللي عمل العملة دي ؟! » .

« لحد دلوقت محدش يعرف مطرحه ، ولا مطرح رؤوسهم ! » .

« هو خد رؤوسهم معاه ؟! » .

« دي حكاية كانت عجب . والمينا اتقلبت . لكن الحرب جت بقى وبلعت كل حاجة ! » .

« يعني إيه ؟! » .

« العبارة اتنست من ساعة ما طقت أول رصاصة في بلاد الإنجليز ! » .

وتنفس مندي الصعداء . لأول مرة ، شعر مندي بالراحة تغمره . . . ولأول مرة ، كان يسير بجوار الشاويش عبد العزيز وهو يتلفت يمنة ويسرة . . كان ، كان يريد أن يراه كل الناس ، وأن يرى كل الناس ، حتى لقد فكر في السفر إلى كفر الزيات .

ولكن . . .

* * *

ولكن مندي وجد نفسه أمام السفينة المصابة في الحوض الجاف . كان الشاويش عبد العزيز قد مر على بضع سفن وعاد خاوي الوفاض . . . ذلك أن بعض البحارة عادوا من المهجر بعد أن فشلوا في الأعمال التي أسندت إليهم ، أو ، وهذا ينطبق على معظمهم ، لم يستطيعوا الابتعاد عن البحر مدة أطول من هذه . . . وهكذا ، كانت أزمة البحث عن بحارة تخف يوماً بعد يوم . . . لكنهما عندما خرجا من الميناء وركبا الترام ولم يأخذ الكمساري منهما أجراً إكراماً للشاويش ، ونزلا عند الحوض الجاف في حي الورديان ، حتى كان باب الفرج قد انفتح أمامهما على مصراعيه !

* * *

كان القبطان سكيراً يوناني الأصل يعرف اللغة العربية :

« **إنتي اشتغلتي في مراكب قبل كده يا ولد ؟!** » .

رد الشاويش :

« **ده مولوذ في الميه يا قبطان !** » .

« **يعني بتعرف في شغل البحر ؟!** » .

« **بنقول لك مولود في الميه !** » .

« **فيه باسبور ؟!** » .

« **يطلع في يوم وليلة !** » .

« **خلاص . روح أنت طلع الباسبور بتاعه . وسيبه هو للشغل هنا !** » .

« فين ؟! » .

دس القبطان يده في جيبه وهو يمطر السفن والبحر بعشرات الشتائم القبيحة ، مد يده بخمسة جنيهات أعطاها للشاويش عبد العزيز الذي التفت إلى مندي متسائلاً :

« معاك صورة ! » .

« لأ . » .

« يبقى لازم تيجي معايا لأجل ما تتصور ! » .

* * *

في المساء كان كل شيء هاجعاً تماماً . كان البحارة قد غادروا السفينة وقد علم بعضهم أن شاباً قد انضم إليهم . . . وكان الباشريس ـ كبير البحارة ـ مصرياً « اسمه خليل » ، كان رجلاً ربع القوام قصير القامة قوي الجسد يحمل فوق فمه شارباً هائلاً . وتخرج من بين شفتيه كلمات لها وقع القنابل ، وقد نظر إلى مندي بازدراء وقال للقبطان !

« الود ده عمره ماطلع البحر ! » .

رطن القبطان باليونانية ، وكان واضحاً أن الباشريس خليل يعرفها جيداً ، رطن القبطان طويلاً . ثم لوح بذراعه تاركاً مندي مع الباشريس خليل ، الذي وقف مائلاً بجذعه إلى الخلف ماسحاً جسد مندي من أعلى إلى أسفل ، ثم قال :

« شوف يا بن الناس . البحر ، ما هواش لعب . آه » .

مضت لحظة صمت لم يرد فيها مندي :

« **والمراكب ماهياش فلايك . آه !** » .

والتزم مندي الصمت أيضاً .

« **وآني هنا بقى الباشريس . آني الكل في الكل . آه !** » .

شعر مندي بغصة في حلقه لم يجد لها سبباً !

« **واللي أقوله يمشي من غير أحم ولا دستور . . قلت إيه ؟!** » .

« **آني تحت أمرك يا باشريس !** » .

قالها مندي في استقامة ووضوح أدهشا الباشريس خليل . غير أنه سرعان ما ابتلع تلك الدهشة وهو يتمتم :

« **كده يبقى كويس . آه . . . تعالى ورايا !** » .

* * *

وجد مندي نفسه أمام حلمه وجهاً لوجه . . . ذلك العنبر الكبير الواسع في بطن السفينة ، والذي رصت فوق أرضه صناديق تبدو كالتوابيت ، وكان كل صندوق يستعمل كدولاب لملابس البحار وأغراضه ، ويستعمل كفراش ينام عليه . .

« **ده سريرك !** » .

كان الفراش في ركن قصي من العنبر ملتصقاً بجدار السفينة البارد . .

« روح هـات هدومـك وحـطهـا فيـه وحصلني على فوق ! » .

« معنديش هدوم ! » .

« وحاتشتغل بإيه ؟! » .

صمت مندي تماماً .

« تعالى نديك وردروبه إياك يطمر فيك ! » .

استدار الباشريس خليل بقامته الربعة وسار نحو السلم في خطوات كان جسده يتمايل لها يمنة ويسرة شأن من تعود السير فوق الموج ، هم بصعود السلم الحديـدي عندمـا التفت نحو مندي صائحاً :

« ولو إنه مش حايطمر فيك . آه . » .

وتسلم مندي الوردروبه ، وهي بدلة العمل ، وأصبح عليه أن ينتظر حتى الصباح كي يبـدأ العمل . . . فلقـد حل الليـل وحرمت إضاءة الأنوار . . . خلت السفينة من البحارة وسادهـا السكـون حتى من ضربـات مياه البحـر . فلقد كـانت لا تزال معلقة في الحوض الجاف حتى يجري إصلاحها وسـد الثقب الذي أحدثه الطوربيد في جانبها الأيمن !!

رقـد مـنـدي فـوق فـراشــه الخشبي الجـديـد ، سـرح بأفكاره . . . هكذا يتحقق أغلى الأحلام غيـر أنه بـلا طعم . هكذا أحس . فكيف يسعد وزغدانة بعيدة عنه في بلدة اسمها كفـر الزيـات لا يعرف أين هي ولا بـد أن الطريق إليهـا كـان

طويلاً . . . ولقد غفت عينه لساعات أو لثوان لا يدري . . .
كل ما يعلمه أنه استيقظ على ضجيج وصراخ وزعيق . . .
وعندما فتح عينيه . كانت هناك ثلاثة من الوجوه تطل عليه . . .
كانت الوجوه لرجال من رجال السفينة ، وكانت الأفواه باسمة
ورائحة الخمر تفوح منها . فارتعد وهو يقفز من مكانه !

الصورة التاسعة

كان الذي دفع مندي إلى القفز من فراشه هو هذا الإحساس الذي يطلق عليه علماء النفس اسم غريزة البقاء ، وهو إحساس غامر بالخوف من خطر مجهول . لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مندي رجالاً سكارى ، وكان يعلم أن أشد الرجال خطراً أثناء السكر هم الاستراليون . . . وعندما امتلأت الإسكندرية ذات يوم بألوف من جنود الإمبراطورية البريطانية ، كان فيهم الهندي والأفريقي والكندي والأسترالي . . . كان الجنود الأستراليون يبدون لأهل مصر في تلك الأيام مثل الثيران الهائجة ، فما أن يشرب الواحد منهم كأساً حتى يسير مترنحاً محطماً كل ما في طريقه ومن في طريقه . . . غير أن الذي يعرفه مندي عن المصريين الذين يتعاطون الخمر لم يكن يتعدى بضعة من رجال الميناء كانوا إذا احتسوا الخمر ترنحوا مستندين إلى حيطان البيوت في الشوارع ، وبعضهم كان الناس يتندرون برقدته على الرصيف في انتظار نور الصباح . . . لكن الذي رآه في تلك الليلة ، وكان الرجال الثلاثة مصريين ، كان مخيفاً إلى الحد الذي دفعه إلى أن يقفز من فراشه مسرعاً إلى حيث لا يدري .

وربما . . . ربما كانت تلك الحركة المذعورة بالـذات ، هي السبب في كل ما حدث بعد ذلك !

فما أن غادر منـدي فراشـه في تلك القفزة السـريعة حتى وجـد نفسه معلقـاً في الهواء . . . وكـان الذي أمسـك بيـاقـة الوردروبه ورفع مندي في الهواء عملاقاً اسمه « شبيطة » ، كان لـه اسم آخر ، وكـان جميع من في السفينـة ، حتى القبـطان اليوناني ، يعرفون أن له اسماً آخر في أوراق السفينة وفي جواز سفره ، غير أن واحـداً من هؤلاء لـم يهتم على الإطلاق بهـذا الاسم الحقيقي . ولا أحــد يـدري مـن الــذي أطلق عـلى « شبيـطة » اسم « شبيطة » أو لمـاذا ، ربما لأنـه كان سـريـع الغضب كثير الشجار ، ولقد كان شبيطة سكران في تلك الليلة حتى النخـاع . . . كان في السفينـة عندمـا هاجمتها الغواصة الألمانية وأطلقت عليها ذلك الطوربيد الـذي صنع في جـانبها الأيمن ذلك الثقب الهائل الذي أشعل النيران في عنبر ٣ وكاد شبيطة يروح فيهـا لولا ستـر الله . . . مات من زمـلائه ستـة ، احترق اثنان وغرق أربعة أمام عينيه ، ورغم حزنه الشديد ، إلا أنه ظل يضحك طوال الأيام التي قضتها السفينة في البحر حتى وصلت إلى الميناء ، ثم ظـل يشـرب الخمـر ليــل نهـار ، ويتعارك ، ويبكي أحياناً .

لم يكن منـدي يعلم هذا عن شبيـطة ولم يكن يعلم شيئاً عن الآخرين ، غير أنه عندما وجد نفسه معلقاً في الهواء بهذه الصـورة المهينة ، وعنـدما ضـج الجميع بـالضحك ، انتـابـه

غضب جامح ، غضب دفعه إلى محاولة التخلص من مأزقه هذا فازدادت ضحكات الرجال . . .

ثوان هي وامتلأ العنبر بالرجال . وأضيئت الأنوار الزرقاء لتلقي بالضوء على الوجوه الشاحبة الخائفة فتحيلها إلى أشباح مرعبة . كان شبيطة ، بقوة ساعد خارقة ، يحمل مندي ويسير به في العنبر مروراً بالرجال ، وكان الغضب قد تملك مندي فراح يسب ويلعن ويحاول دون جدوى . . . غير أن فرصته حانت عندما أداره شبيطة إلى ناحيته وراح يضحك في وجهه فيندفع تيار أنفاسه معبقاً برائحة خمر نفاذة أشعلت نيران الغضب أكثر ، نظر إليه شبيطة وقد هدأت ضحكاته :

« اسمك إيه يا شاطر ! » .

« وانت ما لك ! » .

« ذنبك على جنبك ! » .

« نزلني !! » .

« مش لما نعرفوا الأول اسمك إيه ؟! » .

تكورت قبضة مندي في عنف استعداداً للانطلاق نحو وجه شبيطة ، غير أن هذا قد تنبه إلى ما يفعله البحار الصغير ، وما أن انطلقت القبضة حتى مال شبيطة برأسه إلى الخلف فطاشت ضربته ، وأصبحت الضحكات في العنبر كالجنون ذاته . وأحس مندي أنه أصبح أضحوكة حتى لنفسه . . . ولكن ، عندما رفع شبيطة يده اليسرى ليلطم بها وجه مندي في دقة جعلت رأسه يدور ، كان شبيطة يقول :

« ماتعملش كده تاني يا شاطر ! » .

ظن مندي في لحظات عصبية مرَّت بـه، أن الأمر كله ليس سوى كابوس أو حلم ثقيل ، لكن الضحكات والأصوات ودماءه التي كانت تغلي أقنعته جميعاً بأنه مستيقظ ، وأنه ثمة رجل ما يلعب به أمام الناس كما يلعب بدمية . قرر قتله !

* * *

هل كانت هذه هي البداية ؟!

بـداية ذلـك الطريق الـذي شقه منـدي في بحـار الـدنيـا وموانيها جاعلاً من نفسه أسطورة يتحدث بها الجميع ؟! . .

لا أحد يستطيع أن يجيب على وجه التحديد ، غير أن ثمة شيئاَ شديـد الأهمية قـد حـدث في تلك اللحـظات في رأس مندي ، فلقد تذكر ، مع قراره بقتل شبيطة ، زغدانة !

في شارع ضيق يبدو مثل شق وسط المباني في مدينة كفر الزيات ، وجد الكومي غرفة في بيت من تلك البيـوت الكبيرة الهـائلة الحجم . والتي كـانت ، في تلك الأيـام التي ليست ببعيدة بعداً ساحقاً ، تبنى كي تسكنها العائلات الثريـة ، فإذا البيت كله ، أخوات وأولاد عم وأخوان وبنات خالة . . . وكان الطابق الأرضي من هذه البيوت ، عادة مـا يخصص للخدم ، فإذا به مجموعة هائلة من الغرف ، تزيد في بعض الأحيان على العشرين ، تحيط بفناء رطب يمتلىء بالأطفال والنسـاء ـ نساء الخدم في البداية ثم نساء المهاجرين بعد قيام الحرب ـ اللاتي

كن يغسلن الغسيل أمام أبواب حجراتهن ، أو يطبخن طعاماً تفوح منه رائحة نفاذة . . . فلقد كان السكندريون يعشقون الطعام ، خاصة إذا كان سمكاً !

في هذا الشارع الضيق الذي يطلق عليه حتى اليوم في كفر الزيات اسم « شارع همازين » ، وجد الكومي غرفة في فناء بيت الحمامصي دفع لها أجراً قدره عشرون قرشاً في الشهر ، وبدأ يبحث لنفسه عن عمل ، كما بدأت زغدانة ، بدورها ، تفكر في عمل شيء تساعد به أسرتها .

كانت الأيام الأولى شاقة وقاسية . حاول الكومي فيها أن يجد لنفسه مكاناً ينصب فيه نصبته لبيع الشاي للناس ، فوجد بدل المكان ألف مكان ، لكنه لم يجد من الزبائن ما يكفي للاستمرار ، انتقل من رصيف إلى آخر . من مكان إلى آخر . من عند محطة السكة الحديد حيث الحمالون وعربجية عربات الحنطور ، إلى موقف الأوتوبيسات الذاهبة إلى طنطا عند المزلقان الذي يغلق ويفتح لمرور القطار ، وسيارات التاكسي التي تختفي أجسادها تماماً تحت أجساد الناس الذين كانوا يركبون كل موضع قدم فيها نظير قرش صاغ يدفعه الراكب نظير رحلة خطرة في طريق غير معبد يمر بعشرات القرى التي تحيط بالمدينة الصغيرة ! .

كان بعض الإسكندرانية قد وجد أعمالاً شتى في بيع اللبن وتجارة الخبز وما إلى ذلك ، وكان بعضهم قد وجد عملاً ثابتاً في مصنع الصابون القائم في أطراف المدينة ، والذي كان

يملكه رجل يوناني سرت الشائعات في المدينة وأصبحت مثل حقيقة غريبة لكنها ثابتة ، إنه كسب المصنع بعماله وآلاته ومبانيه وبيوت موظفيه الحمراء ذات اللون الكابي ، في لعبة ميسر كان المفروض أن يكون أحد كروته خمسة ، لكنه لم يكن يملك سوى كارت به أربعة فقط ، فما كان منه إلا أن عض أصبعه حتى أدماه . وطبع بالدم مكان القلب الأحمر الناقص ، قلباً بدمائه . . . ومن ثم كسب المصنع !

سمع الكومي هذه الحكايات الغريبة في كفر الزيات عن صاحب مصنع الصابون الذي لم يره أحد . فالخواجات ، وأي أجانب كانوا في مصر خواجات في ذلك الزمان ، ولهم هيبة ، كما سمعت زغدانة نفس الأسطورة ، وصدقاها تماماً ، فلم يكن هناك ما يبرر ألا يفعلا . . . بل ربما صدقاها لأنهما كانا مشغولين تماماً بلقمة العيش التي كانت ، في تلك الأيام السوداء التي كان لون الخبز فيها قد أصبح أسود مثلها ، وقد بلغت جولات الكومي وابنته حتى وصلا إلى مستشفى الانكلستوما الكائنة على الشاطىء الآخر من ترعة الملوانية التي كانت تشق المدينة الصغيرة نصفين في تلك الأيام . . . وهناك ، استقرا لبعض الوقت ، فلقد وجدا زبائنهما من الفلاحين الذين كانوا يتوافدون على المستشفى للعلاج من البلهارسيا والانكلستوما بشكل منتظم وغزير وطوال أيام السنة .

وكان العمل مرضياً . والحمد لله على كل شيء . لكن الذي كان يعيبه ، هو أن الفلاح لم يكن يستطيع أن يشرب

الشـايِ قبل الحقنـة . حتى إذا أخذهـا ، كان عليـه أن ينتظر طـويلاً . ذلـك أن حقنة الـطرطير كـانت تقلب معدة الـرجال فيرجعون ما في جوفهم . . . وكان على الكومي أن ينتظر حتى تغيب الشمس عندما تنقـطع القدم من هـذا الطريق المـوازي لترعة الملوانية ، والذي يصبح البقاء فيه خطراً ! .

غير أن حادثة وقعت ذات يوم .

فلقد كانت أم زغدانة تجلس أمام باب غرفتها تقلي بعضاً من أقـراص الـطعميـة التي يـطلق عليهـا السكنـدريـــون اسم « فلافل » ، والتي يتقنون صنعها في نفس الـوقت . وتصادف مرور أحمد الحمـامصي ، الابن الأصغر لصـاحب هذا البيت المهول فشم رائحة الطعمية ، فما كان منه إلا أن عاد إلى أمه . وطلب أن يتذوق هذه الطعمية ، وسرت أم زغدانة سروراً بالغاً لهذا الطلب الرخيص ، وأرسلت إلى صاحبـة البيت عدداً من الأقـراص ، دفعت السيدة إلى طلب المـزيد منهـا صباح كـل يوم ، على أن تدفع في القرص مليماً كاملاً .

في المساء كان الحديث داخل الغرفة بين أفراد الأسرة ، الكومي وزوجته وابنته ، هامساً خوفاً من الحسد ، ومن سماع الجيران بما حدث ، فلربما قام أحدهـم أو إحداهن بالخدمة . ولهفـ الرزق الآتي على غير موعد أو ترقب .

كانت الحسبة تقول أنه من الممكن أن تكسب الأسرة من هذه الصفقة قرشاً كاملاً في كل يوم !

كانت أقراص الطعمية تباع كل أربعة أقراص بمليم . وها هو رزق ، على غير توقع ، يفتح باباً في السماء ، لتكسب منه الأسرة قرشاً إذا أضيف إلى ما يكسبه الكومي من الشاي صنع دخلاً لستر حاجتهم تماماً .

ولكنهم في تلك الليلة ، لم يكن أحدهم يدري ما يخبئه لهم القدر من أحداث ، لم يكن أحدهم يعلم ، أن قرص الطعمية هذا الذي طلبه شاب وسيم ومدلل لعائلة ثرية ، واسمه أحمد ، سوف يكون سبباً في تغيير حياتهم كلها ! !

* * *

فهل كان مندي يعرف ما يحدث ؟ !

كان مندي في ذلك الوقت راقداً في فراشه مريضاً بعد أن أصابته لكمات شبيطة بكدمات وأورام لا حصر لها انتشرت في جسده وجعلت بقاءه في أي وضع ، أمراً غير محتمل !

كانت السفينة الآن في عرض بحر ، كانت تحمل شحنة من القمح المصري ، وكان عليها أن تقطع البحر الأبيض ، وأن تعبر مضيق جبل طارق ، وتنحرف بحذاء الساحل البرتغالي الذي كان يميل إلى الألمان رغم أنه لم يدخل الحرب ، ثم يصعد إلى الشواطىء الإنجليزية وسط بحر من الألغام كان يهدد السفينة في كل وقت .

كان مندي راقداً في فراشه في ذلك اليوم الغريب .

وكانت المعركة التي بدأت بينه وبين شبيطة في تلك الليلة

الأولى له على السفينة لم تنته بعد . . . فلقد هزم مندي ، ولكنه صمم على الأخذ بالثأر . . . وكلما حانت له الفرصة دخل معركة مريرة مع شبيطة ، وفي كل مرة ، كان يتلقى من الضربات ما يوجع جسده . . . غير أنه كان يتحامل ، عناداً منه ، ويقاوم الألم ويتظاهر بالعافية . . . حتى كانت تلك المرة وكانت السفينة تقترب منذ الصباح من مضيق جبل طارق . حيث الموت يترصد السفن العابرة في كل ثانية . فغير الألغام التي بثها الحلفاء في هذا المضيق ، كانت هناك الغواصات الألمانية التي كانت تأتي بالعجائب ـ هكذا كان يقول الرجال ـ وتخترق أي حقل من حقول الألغام المزروعة في البحر . لتصيب سفن الحلفاء في مقتل ، ويبتلع البحر بين يوم وآخر عدداً لا بأس به من جثث البحارة .

في تلك المرة كان السبب شيئاً عادياً لا يدفع للعراك . غير أن مندي أنشب أظافره في عنق شبيطة ، فما كان من الأخير إلا أن لقنه درساً هذه المرة وهو يقول :

« علشان تحرم بقى ولا تقربش مني ! » .

وعندما صرخ الباشريس خليل في شبيطة أن ما فعله سيجازى عليه . وأنهم في حاجة إلى الرجل . . . صرخ شبيطة :

« طب ماتقول له يحل عني . . . حايبقى هو والألغام! » .

ذلك أن الخوف من الألغام كان عارماً . . . وعندما جن

الليل . . . وسارت السفينة فوق سطح المياه في بطء وحذر ، كان مندي راقداً في فراشه . عندما دوى في الكون انفجار هز السفينة هزاً عنيفاً . وطار جسـد مندي في الهـواء وسقط على الأرض . وتمـايلت السفينة وانـطلقت صفـارة الإنـذار وسمـع مندي وهو يغادر العنبر عـدواً ، صوت واحـد من الرجـال وهو يصرخ :

« طوربيد . انصبنا . المركب بتغرق !! » .

الصورة العاشرة

كان السكون يسود الدنيا مع الظلام في تلك الليلة التي وقع فيها هذا الذي وقع . . . كانت معركة مندي مع شبيطة لم يمض عليها سوى ساعات معدودات ، وكان مندي ـ لفرط إحساسه بالمهانة ـ يقف في مؤخرة السفينة ، يرقب هذا الظلام الساكن ، وسطح المياه اللامع تحت أضواء النجوم ، وجبل طارق يبدو شامخاً في السماء مثل شبح مظلم ، تتألق فيه بين الحين والحين لمبة زرقاء أو ضوء جاء على سبيل الخطأ . . . كان مندي في تلك اللحظات قد أحكم خطته ، وقرر أن يقتل شبيطة في لحظة ما ، أن يجره إلى مشاجرة ويطعنه فيها بسكين وليكن بعد هذا ما يكون .

من الداخل بدأ شبح الباشريس خليل وهو ينفذ إلى السطح ، توقف الجسد الربع بعيداً عن مندي لكنه كان من الواضح أنه ينظر إليه ، شعر مندي بظهور الباشريس فالتفت نحوه وتعرف عليه في الظلام ، توقف الباشريس وهو ينظر إليه طويلاً فأحس هذا بوقع نظراته عليه ، ساد الصمت إلا من صوت المياه تحتك بجسد السفينة المتقدم عبر البوغاز في بطء بالغ حتى ليخال المرء أنها ثابتة لا تتحرك . عاد شبح

الباشـريس يتقدم من مندي في خطوات بطيئة حتى أصبح على بعـد أمتار قليلة فعـلاً إلى التوقف . . . أحس منـدي بالحـرج والغيظ والضيق في نفس الوقت . . . كانت هزيمته عصر ذلك اليـوم أمام شبيـطة هزيمـة منكرة ، ظـل يوجـه إليه اللكمـات والضـربات ولم يستـطع مندي أن يـدافع عن نفسـه . . . جاء صوت الباشـريس عبر سكون الليل هامساً :

« **شبيطة طيب !** » .

كان مندي يعرف التعليمات جيداً ، أن عليه ، إذا ما كان واقفاً فوق السطح في الليل فلا بد له من الحديث همساً . قالوا له أن المياه موصل جيد للصوت فلم يفهم ، قال له رجـل من البحـارة أن المياه تنقـل الصوت إلى بعيـد بعيد وكـأنها سلك كهربائي فصدق وإن لم يقتنع أو يفهم . . . قال الباشـريس ما قال فلم يرد عليه مندي . . . عاد الصمت يسود المكـان لثوان لكن همس الباشـريس قطعه وهو يقول :

« **بلاش تحط رأسك برأسه !** » .

هم مندي بالحديث لكن لسانه التصق بسقف حلقه . نظر إلى وجه الباشـريس خليل في الظلام ولم يحر جواباً . تململ في وقفته برهة ، ثم انطلق إلى العنبر لا يلوي على شيء . . . لم يكن أمامه سوى أن يلقي بجسده فوق الفراش ويدفن رأسه في الوسادة وكانت الدماء تغلي في عروقه . ثم . . . ثم دوى ذلك الانفجار الذي هز السفينة هزاً عنيفاً . . . طار جسده في الهواء ولمح من خلال الباب الذي فتح بعنف ألسنة لهب كانت

قد اشتعلت حيث لا يدري . . . تعالت الصرخات والصيحات وتمايلت السفينة وانطلقت صفارة الإنذار وكان مندي راقداً فوق الأرض يحاول أن يخلص نفسه من دولاب خلعه الانفجار من الجدار ليلقي به عليه ، وسمع مندي في تلك اللحظات صياح مذعور :

« طوربيد . انضربنا . المركب بتغرق ! » .

* * *

الصيحات والصرخات والدماء والأذرع المبتورة والعيون الجاحظة والأجساد الممزقة والأجداث الملقاة في الممر وألسنة اللهب وقد نالت من كل السفينة . . . ركض مع الراكضين وتزاحم مع المتزاحمين ، وجاءه صوت القبطان يصرخ :

« **كل واحد في مكانه . . . كل واحد في مكانه !** » .

وصل مندي إلى مؤخرة السفينة وسمع صيحات القبطان تتبدد في الهواء ، ورأى أجساد البحارة وهي تقفز في ذعر إلى المياه . . . وعاد صوت القبطان إلى الصراخ :

« **كل واحد في مكانه ، المركب لازم تطلع من البوغاز !** » .

لم يفهم مندي شيئاً ، ولم ير في تلك اللحظات شيئاً ، وهو ، حتى تلك اللحظات التي كان يقص فيها ما حدث ، لا يدري لم ترك الرجال يهربون إلى المياه ، ولم اندفع بقوة غريبة يصعد سلماً ، ويعدو متخطياً ألسنة لهب كانت تعترض

طريقه ، ليصعد سلماً آخر ، إلى حيث غرفة القيادة :

« **أيوه يا قبطان !** » .

كان القبطان يقف في غرفة القيادة كالمجنون وهو يصيح في الميكروفون :

« **كل واحد في مكانه . كل واحد في مكانه !** » .

كان هذا الرجل اليوناني ذو الوجه الصلب والكلمة التي لا ترد ، والذي كان مندي يظن فيه أنه بعيد المنال عما ينال البشر ، كان يقف صارخاً مذعوراً هو الآخر . . . وكان ثمة رجل يقف خلف عجلة القيادة . . . والقبطان يصرخ في ضابط صغير بدا عليه الهلع :

« **كل السرعة للأمام . . . كل السرعة للأمام !** » .

وصرخ الضابط في بوق صغير مردداً أوامر القبطان الذي التفت نحو مندي صارخاً :

« **إنتي واقف هنا بتعمل إيه ؟!** » .

ولم يحر مندي جواباً . كان فقط ، يشعر بسائل ساخن ينزلق من رأسه إلى وجنته . . . مد يده إليه ونظر فيها وعرف أنه كان ينزف دماً . . . لكن صوت القبطان لاحقه :

« **روح البروه بسرعة . إجري ساعد شبيطة !** » .

في لمح البصر ، كومضة برق ، مرقت الفكرة في ذهن

مندي ، لكنه كان الآن ينطلق إلى حيث مقدمة السفينة ، وكان شبيطة هناك !

رغم الظلام والسفينة التي مالت على جانبها في عنف ، رغم الذعر والهلع والرعب ، فلقد جاءه صوت شبيطة واضح النبرات :

« تعالى هنا يا مندي وخليك جنب جنزير اللهب يا جدع ! » .

جاءه صوت شبيطة وكأنه يد حانية حازمة تدفعه لكي يطيع ، ولقد أطاع . . .

اندفع نحو محبس الجنزير وقبض عليه بكلتا يديه ، وكان شبيطة يقفز الآن إلى حيث امتد اللهب من الونش الهائل الكامن في مقدمة السفينة ، صاح :

« لو جرى لي حاجة مالكشي دعوة بيه ! » .

دهش مندي . كان شبيطة يقفز مثل غوريللا هائلة من مكان إلى مكان . . . اختفى لثوان وعاد ومعه رجل آخر وكانا يحملان خرطوماً للمياه . . . سلطا الخرطوم نحو النيران ، واندفع شبيطة ليفتح صمام المياه لكن المياه لم تنفذ من الخرطوم .

فجأة . . . دوى انفجار آخر . . .

وفي لمح البرق كانت مؤخرة السفينة تغوص في المياه . . .

دوى هـذا الانفجار وأحس منـدي أنه يـطير في الهـواء ، بـل ، يسبح في الهـواء ، شيء كالغيبـوبة هي ، كـالإغماء . كاللاشيء هذا الذي أحس بـه مندي حتى أنـه ترك نفسـه في نشـوة غريبـة لهذا الإحسـاس الذي أيقـظته منه بـرودة الميـاه الشديدة فشهق . . . وتدفقت المياه إلى حلقه ، فلقد كان الآن يغـوص في لجة فـائرة بـالأمـواج والإنفجـارات والخـطر . . . وتحت المياه ، حيث كانت الدنيا تبدو وكأنها دنيا مسحـورة . دوى انفجار ثالث ، لكنه مكتوم ، وومض ضوء باهر . تحولت بعده المياه إلى شيطان لا اتجاه له . وأحس مندي أنه يغوص ويغـوص . ولقـد حـاول ، حـاول أن يصعـد إلى أعلى دون جـدوى . . . كان صـدره الآن يضيق بحثاً عن نسمـة هـواء ، وكان جسده مثل قشة تتلاعب بها أمـواج شيطانيـة . . . وراح خـدر غريب يتسلل إلى عـظامه . حـاول ، حـاول منـدي أن يفكـر ، أن يكون ، أن يـرى ، دون جدوى ، كـان . . . كان يضيع ، الخدر يتسلل إلى كل جسده مسببـاً آلاماً رهيبـة . . . آلاماً مثل نصال حادة تمزق صدره . . . لكنها ، رغم شدتها ، كـانت محتملة . . . ذلك أن شيئـاً آخر كـان يحدث في هـذا الوقت ، كان النوم يزحف إليـه ، لم يكن نومـاً . لا . . . هو يعرف النوم جيداً . كان . . . كان لاوعيـاً يجتاح جسده كله . فأحس ، وهو يدور مع المياه إلى حيث شاءت أمواجها وتياراتها تحت السطح ، براحـة غريبـة تجتاحـه . . راحة تـرك بعدهـا نفسه ، فلا زمان ولا مكان .

* * *

عندما فتح مندي عينيه كان المكان يبدو له شديد الغرابة ، كوخ خشبي ذو نوافذ زجاجية طلي زجاجها باللون الأزرق ، صوت الأمواج يأتي من بعيد ، تحركت عيناه من السقف البادي أمام عينيه إلى ما حوله فوجد أسِرَّة مرصوصة بطول الكوخ الخشبي ، انجلى سمعه فأتته أنات رجال من هنا وهناك . رائحة الدواء النفاذة تملأ الهواء . . . حاول أن يحرك جسده فأحس بآلام في ظهره ألزمته السكون مرة أخرى ، أغمض عينيه محاولاً أن يتذكر ما كان فلم يفلح ، اختلطت كل الذكريات واجتاحت رأسه دوامة من الصور لم يميز من بينها شيئاً . . . عندما فتح عينيه كان ثمة وجه أشقر في ملابس بيضاء يطل عليه باسماً :

« **هل استيقظت ؟!** » .

كانت تبتسم ، وكانت تتحدث في إنجليزية بسيطة تعود مندي أن يسمع مثلها في الميناء من بحارة السفن وجنود الإمبراطورية . . .

« **أنا فين ؟!** » .

قالها بالعربية فابتسمت صاحبة الوجه الأشقر وأمسكت بيده وراحت تقيس نبضه . . . انتبه مندي بعد جهد واستجمع ذاكرته وسأل بإنجليزية ركيكة :

« **أين أنا ؟!** » .

« **في جبل طارق !** » .

وتذكر كل شيء مع ذكر الاسم . . . الانفجار والنيران والمياه والسفينة الغارقة . . . هم بالجلوس فانتشرت الآلام تمزق ظهره . . . وضعت صاحبة الوجه الأشقر يدها فوق كتفه وأعادته إلى رقدته :

« لا بد لك أن ترتاح ! » .

شرخ السكون صوت غليظ ما إن سمعه مندي حتى انتفض!

« خليك نايم وبلاش معاندة ! » .

التفت نحو اليسار فوجد شبيطة يرقد في الفراش المجاور . اجتاحته الحيرة وعيناه تلتقيان بعيني شبيطة . . . كان شبيطة جالساً فوق حافة الفراش المجاور . وكان يبتسم .

« إيه اللي حصل ؟! » .
« طوربيد تاني ؟! » .

هم مندي بالسؤال مرة أخرى غير آن ذات الوجه الأشقر وضعت يدها فوق شفتيه وتمتمت بكلمات ترجمها له شبيطة على الفور :

« بتقول لك ما تتكلمش كتير ! »

تدحرجت عينا مندي نحو شبيطة وكانت ابتسامته لا تزال هناك . . . كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها شبيطة مبتسماً . ولم تكن ابتسامته من ذلك النوع المرسوم على الشفاه ، بل كانت ابتسامة نابعة من القلب . ابتسامة جذبت

من شفتي مندي ابتسامة أخرى وكأنهما يتصافحان .

مضت ذات الـوجـه الأشقـر بعـد أن تمتمت بكلمـات مدغومة ، فانتقل شبيطة من مكانه إلى فراش مندي :

« إحمد ربنا . . . إنت كنت حاتروح فيها ! » .

هم منـدي بالسؤال فـأسكتـه شبيـطة بحنـان بـدا شـديـد الغرابة :

« قلنا ما تنطقش ، الكلام مس كويس علشانك ! » .

« إيه اللي حصل ؟! » .

قالها مندي عناداً . . . فرد شبيطة :

« أبداً . إنت كنت حاتتوكل لولا ستر ربك ! »

« إيه اللي حصل ! » .

« كلهـا كـام يـوم ونخـرجـوا من هنـا ونقعـدوا لنـا قـول سنة . . . محدش عارف إمتى حانقدروا نرجعوا ؟! » .

تذكر مندي زغدانة ، وكفر الزيات . . . وها هو عام كامل يكتنفه الظلام من كل جانب مقدم عليه . فماذا هو فاعل ؟!

* * *

بعد عشرة أيـام كان منـدي يسير في وضـح النهار بجـوار شبيطة في أحد شوارع المدينة التي بدت وكأنها تنام في حضن الجبل فينام أهلها في حضنها . كان يملك بعض المال الذي صرفوه له وكان الحديث يدور حول سفينة ستعبر بعد أسبوعين

في طريقها إلى الشرق . . .

« يعني إيه ؟! » .

« يعني يمكن تكون رايحة مصر ! » .

« طب مانطلعوا عليها ! » .

« ويمكن تكون رايحة حتة تانية !! » .

* * *

وهكذا راحت الأيام تمضي . جاءت السفينة ولم يصعدا إليها ، وغرقا مرة أخرى في الانتظار . . . كانا قد علما أن أحداً لم ينج من السفينة سوى قلة من الرجال الذين رحلوا إلى قرية بعيدة لسبب لا يدريه أحد. ولم يبق هنا في المدينة سواهما معاً.

وهكذا وجد مندي نفسه ، وجهاً لوجه ، مع شبيطة الذي قرر قتله منذ أسابيع قليلة فوق ظهر سفينة . ولكن شيئاً آخر كان يربط بينهما الآن ، نوع غريب من الصداقة راحت تمتد . . . حتى إذا كان ذات مساء ، عاد مندي إلى الإلحاح :

« انت ليه مش عاوز تقول لي أنا نجيت إزاي ؟! » .

« ماني قلت لك !! » .

« أيوه عارف انه ستر ربنا ونعم بالله ، لكن إزاي ! » .

أطال شبيطة النظر إليه باسماً وسأله :

« انت عاوز تعرف إيه ؟! » .

« مين اللي طلعني من الميه . مين اللي نجاني ؟! » .

« أنا !! » .

الصورة الحادية عشرة

مرت الأيام وكان كل شيء يبدو هادئاً وكأن الدنيا قد عادت إلى النوم والاسترخاء من جديد . . . طاب المقام لمندي وشبيطة في هذا المعسكر الذي وضعوهما فيه في طرف المدينة ، قادوهما إلى عنبر فسيح قد امتلأ بالأسرة وامتلأت الأسرة برجال من كل أنحاء العالم . . . في البداية لم يكن عليهما سوى أن يناما ويستيقظا ويأكلا ما يقدم لهما ، وأن يقفا في طابور كي يحصلا على الطعام أو الصابون أو بعض الملابس الصوفية التي كان لا بد لهما من الحصول عليها بعد ما هجم الشتاء على المدينة بارداً أشد ما يكون البرد . . . في تلك الليلة قص شبيطة على مندي ما حدث في بساطة . . . كان شيئاً غريباً قد حدث منذ أن قال شبيطة من بين شفتيه متمتماً أنه هو الذي أنقذ مندي من الغرق . . . كانت الذكريات تعود إلى مندي تدريجياً بعدما شفي من جروحه . . . كان آخر ما تذكره هو هذا الخدر الغريب الذي تسرب إلى عظامه ولفه لفاً فاستجاب له مستسلماً ربما في نشوة . . . قال شبيطة أنه لم يغادر السفينة إلا بعد أن أيقن من شيئين ، الأول أن السفينة غارقة لا محالة ، أما الثاني . . .

« ما هو آني كنت بنبص عليك من فوق ، العوامة في إيدي والحبل حوالين وسطي وإنت غطست ولا قبيتش . . قلت مابدهاش . . اتشاهدت ونطيت في الميه ! » .

لم يدهش مندي لأن شبيطة فعل ما فعل ، لكن الذي أثار دهشته حقاً أنه تلا الشهادتين قبل أن يقفز إلى المياه . . . نظر مندي إلى شبيطة في دهشة بدت واضحة على ملامحه، فتوقف هذا عن الحديث متسائلاً :

« ما لك يا جدع ؟! » .

هم مندي بالحديث لكنه توقف . . . فماذا يقول للرجل الذي لم يره إلا سكران أو مؤذياً . . . وكيف يتلو من كان مثله الشهادتين وكيف يكون متديناً من كان يفعل ما فعله ويفعله شبيطة . . . عاد هذا يسأله من جديد :

« فيه حاجة يا مندي ؟! » .

« لا أبداً يا ريس شبيطة ! . . . » .

وعاد شبيطة إلى الحديث من جديد . . . كانا يجلسان وقتها على مقهى يطل على المضيق ، يرتفع جبل طارق من خلفهما شامخاً وكأنه جدار أسطوري يحمي المدينة من غوائل الزمن ، وتترامى أمامهما المياه حتى الشاطىء الأفريقي بلونها الداكن وأمواجها الغاضبة ، وكانت موجة من البرد قد هبت فنهضا إلى الداخل ، وطلب شبيطة لنفسه كأساً من البراندي

يدفىء به أوصاله . . . وعرض على مندي مثله لكن هذا رفض :

« أصلي لا مؤاخذة عمري ما دقته ! » .

« ما انت حاتدوقه في يوم من الأيام » .

هز مندي رأسه نفياً دون أن يدري السبب ، جاء الجرسون بالكأس فألقاها أمام شبيطة في لامبالاة وكسل ، رفع شبيطة الكأس إلى فمه وأفرغها فيه ومسح شفتيه وراح يقص عليه قصة إنقاذه :

« ماهو ماكانش بالساهل إني نلاقيك في الميه دي ! . . » .

كانت الأمواج عالية والسفينة تغوص فيها وتسحب من خلفها كل ما على السطح القريب ، قال شبيطة أنه غطس في المياه مرة ومرتين دون أن يعثر لمندي على أثر ، كان في سباق مع القدر فلقد كانت السفينة تغوص في المياه بسرعة ، امتلأ المضيق باللنشات والصفارات وقد جاءت لتنقذ الغرقى من بحارة السفينة . كان الذين قفزوا مبكراً قد إستطاعوا الابتعاد عن منطقة الجذب إلى الأعماق مع هبوط السفينة إلى المياه ، وكان شبيطة يعلم أن لكل ثانية ثمناً . . . ولحظة أن استسلم وهو يدور بعينيه في الظلام بحثاً عن مندي فوق سطح المياه ، لحظة أن فكر أن ينجو بجلده ويسبح مبتعداً ، لمح على بعد شيئاً فوق السطح ، ضرب المياه بذراعيه في عنف حتى وصل

إلى المكان فلم يجد شيئاً ، راح يضرب المياه بذراعيه على غير هدى ، عندما ارتطمت يده بجسد إنسان . . . لم يكن يعرف من هو ، غير أنه عندما جذب الذراع التي ارتطمت بيده ، صعدت رأس مندي إلى السطح . . . فصرخ شبيطة فرحاً . . . وراح يجذب مندي خلفه سابحاً إلى حيث كان أحد قوارب الإنقاذ يلقي بشعاع كشاف أحاط بهما . . .

قال شبيطة :

« **لما طلعونا على ظهر اللنش واحد منهم قال مفيش فايدة !** » .

« **في إيه يا ريس شبيطة ؟** » .

« **فيك يا جدع . . . ما انت اصلك كنت بتخلص !** » .

وعلم مندي بعد ذلك كيف ظل بين الحياة والموت لأيام طويلة ، تذكر أنه كان كلما فتح عينيه وجد شبيطة يطل عليه مع وجه آخر قد يكون وجه طبيب أو ممرضة . . . وكانت تريزا ، تلك الفتاة المالطية ، هي الممرضة التي كرست أياماً طويلة لعلاج مندي بدأب . . . هكذا قال شبيطة فسأله مندي عن السبب . . . وعندما ابتسم شبيطة تلك الابتسامة الواسعة الغريبة ، لم يفهم مندي شيئاً مما عنته هذه الابتسامة . وما لبث أن تساءل :

« **يعني إيه ده بقى يا معلمي ؟!** » .

في تلك اللحظة بالذات ، تلك اللحظة التي مال فيها

مندي على شبيطة في ود وناداه بلقب معلمي ، أحس كل من الرجلين أن ثمة جبلاً من الجليد كـان يفصلها عن بعضهما ، وقد ذاب . . . فلقد ابتسم شبيطة ابتسامة أوسع وأرحب ، وبدا وجهه في تلك اللحظات جميلاً وسيماً قوياً مما أدهش مندي أشد الدهشة ، وصفق شبيطة طالباً كأساً أخرى ، واعتدل ناظراً في حنان نحو مندي فاضطرب هذا لنظراته الغريبة تلك . . .

« إنت عاوز تعرف إيه ؟! » .

« إشمعنى لما جت سيرة تريزا ضحكت كده ؟! » .

« لهو إنت مش عارف ؟! » .

« ماكنتش سألتك ! » .

« البنت وقعت ويـا بخت من وقـع ولقى اللي يسـمي عليه ! » .

كانت النشوة قد بلغت ذروتها وشبيطة يبتلع كأسه الثانيـة في هذا الصباح . فصاح معلناً عن سروره وشوقه إلى بلده : يا مرسي يا بو العباس !

ولم يكن ممكنـاً ، مـع كـل تيـارات الفكـر التي راحت تتلاطم في رأس مندي حول تريزا ، حاملة ذكريات مـا مضى من أيـام كان يـراها فيهـا في اليوم مـرات ومـرات ، ولم يكن ممكنـاً ، مع كـل هذا إلا أن يتـذكر زغـدانـة . . . فتنهـد من أعماقه !

حملق فيه شبيطة هاتفاً :

« دهدي . . . دي الحكاية سلك واتوصل والكهربا مشيت والأشيا معدن ! » .

غير أن مندي لم يرد . . . فقط ، سرح ببصره إلى مياه المضيق ، وقد اجتاحه الشوق اجتياحاً .

في تلك اللحظات بالذات . كانت زغدانة تجمع نصبة الطعمية من سوق كفر الزيات ، كانت حكاية الطعمية التي طلبها أحمد الحمامصي ذات يوم ، قد كبرت ، ولم يعد بيت الحمامصي وحده هو الذي يطلب طعمية من أم زغدانة والكومي ، بل انتشر الخبر في شارع همازين هذا انتشار النار في الهشيم ، وفوجئت أم زغدانة بطلبات الطعمية تنهال عليها من السكان ، فشمرت عن ساعديها . كما شمرت زغدانة عن ساعديها هي الأخرى ، وبعد أيام قليلة ، وبحسبة بسيطة كل البساطة ، اكتشفت العائلة أنه من الممكن الاستغناء الآن عن الشاي وبيع الشاي ، وعلى الفور ، وذات ليلة قررت العائلة أن تنقل نشاطها من الشاي إلى الطعمية . . . .

« تنزل بكره من النجمة يا كومي تشوف لك مطرح في حتة زحمة لاجل ما تحط النصبة ! » .

« والمونة يا وليه ! » .

« مالكش دعوة بالمونة دي علي . . . زغدانة تنزل تصحي عم صبحي العلاف وتجيب لنا منه كيلة فول ، والخضرة لك علي أجيبها من النجمة من السوق ، وعلى النهار ما يطلع حاتكون العجينة عندك وتكون انت ولعت البابور وقدحت

الزيت واتوكلت على الله ! »..

هكذا نشطت العائلة نشاطاً شديداً ، ونهض الكومي إلى الصفائح الصغيرة يحدل منها لتناسب عدة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها ، وانطلقت زغدانة تبحث عن بيت عم صبحي العلاف في ظلام الشوارع المضاءة بالنور الأزرق . . . راحت تتمتم بآيات من القرآن الكريم خوفاً من العفاريت والغارات . . . كان الطريق إلى بيت العلاف يخترق سوق كفر المزيات القائمة في الساحة خلف بيت الحمامصي ، كانت العربات والنصبات تبدو بها في الظلام مثل أشباح مخيفة وكان قلبها يدق ولسانها يتمتم بآيات من القرآن ، حتى إذا اخترقت السوق الصامتة كصمت القبور وهمت بالإنحناء إلى شارع جانبي حتى دوت في سماء المدينة صفارة الإنذار التي وضعها رجال الحكومة منذ زمن فوق بيت الحمامصي بالذات .

ارتجفت زغدانة وهي تنظر إلى السماء متسمعة إلى أزيز الطائرات الألمانية ذات الصوت المتقطع ، ومنذ أيام مر عليهم رجال الحكومة ليصرفوا لكل واحد منهم « كمامة » تحميه من الغازات السامة ، قالوا لهم أن عليهم أن يرتدوها عند إطلاق صفارة الإنذار لأن الألمان يلقون قنابل تنشر السم في الهواء فتبيد العالم ....

التصقت زغدانة بالحائط وقد انتابها الرعب . غاصت قدماها في طين الطريق وانزلقت مع ارتكان جسدها إلى

الحـائط . . . سمعت عن يمينها صـوت قدمين تخـوضان في الطين وتقتربان منها .

دق قلبها بعنف أكبر فماذا لو كان صاحب القدمين واحداً من رجال الإمبراطورية المعسكـرين على الشاطىء الثـاني من النيل ، والذين إذا ما نزلوا إلى المدينة عاثوا فيها فساداً وتحدث بأفعالهم أهل البلدة لأيام حتى يسمعوا عن حادثة جديدة . . . غير أن زغدانة كانت تستبعد ، كلما اقتربت الأقدام ، لمعـركة كانت تعلم مسبقاً أنها معركة خاسرة ، ولكن . . . ما أن أصبح الشبح يقف على بعد خطوات منها حتى توقف ، وجاء صوت خافت واضح :

« **مين ؟!** » .

كان الصوت مألوفاً لزغدانة . كانت تعرف صاحبه لكنهـا لم تتعـرف عليـه وسط دوامـات الخـوف التي اكتسحت كـل جسدها ونفسها وروحها . . . عاد الصوت يتساءل بصوت أشد وضوحاً :

« **مين اللي واقف هناك ؟!** » .

وكان لا بد لزغدانة أن ترد فردت :

« **أنا زغدانة !** » .

اندفع الشبح نحوها في لهفة وبان صوته ووقع وجهـه في دائـرة ضوء خـافت لا يدري أحـد من أين جاء فـإذا به أحمـد الحمامصي :

« واقفه كده ليه يا زغدانة ! » .

حكايات كثيرة تلك التي سمعتها عن أحمد الحمامصي الذي ورث مالاً وتجارة ، والذي يعيش مع أمه وأخواته البنات وهو أصغرهن سناً وإن كان أعلاهن مقاماً فهو رجل البيت ، حكايات عن بنات أجريج ـ أي يونانيات ـ أحببنه وأحبهن ولولا أن رفضت أمه بإصرار لكان زوجاً لواحدة منهن الآن . . . رغم غناه الفاحش ، وملابسه الفاخرة ، ووجهه الوسيم . . . إلا أن شيئاً ما كانت تنطق به عيناه ، شيئاً لم تره زغدانة من قبل وإن كانت أحسته بوضوح :

« إيه اللي جابك هنا يا زِغدانة ؟! » .

« كنت رايحة نشتري كيلة فول من عند عم صبحي ! » .

« وحد يشتري فول في وقت زي ده ؟! » .

« أصل إحنا لازم ننصب النصبة بكرة من النجمة ولا عندناش فول كفاية ! » .

« أنتوا حاتشتغلوا في الطعمية وتسيبوا الشاي ؟! » .

« آهو كله أكل عيش يا سي أحمد أفندي ! » .

« طب تعالي ! » .

قالها بثقة شديدة وهو يتقدم زغدانة لتعود فتسير من خلفه مخترقة السوق بأشباحه وسكونه وعرباته المغطاة . . . انزلقت قدمها في كتلة طين كانت تتوسط الطريق فسقطت على يديها وتوقف أحمد ناظراً إليها وعلى شفتيه ابتسامة لم ترها زغدانة

فلقد كانت مشغولة في إقالة نفسها ، سبت الطين والحرب والأيام السوداء التي قذفت بهم من مدينتهم وحياتهم . . . حاولت أن تخرج قدميها من الطين غير أنها كادت تفقد توازنها مرة أخرى . عاد إليها أحمد في هدوء ، وأمسك ، دون أن تنتبه زغدانة ، بيدها في قوة ، وجاءها صوته آمراً :

« اتسندي على إيدي وخطي قوام ! » .

كأن الأمر قد صدر من فمه إلى آلة فأطاعت ، واكتشفت أنه كان يمكنها أن تخطو وحدها فدهشت ، سارت إلى جواره غيره أن يده لم تترك يدها ، دهشت في البداية فلقد كانت أصابعه تقبض على أصابعها في عنف رقيق ، فكرت في أن تسحب يدها لكنها لم تستطع ، لا ، لم ترد ، عربدت الدهشة والثورة والضيق في صدرها فصاحت محتجة :

« طب إحنا رايحين فين دلوقت ؟! » .
« رايحين نجيب فول ! » .
« منين ؟! » .
« من المخزن بتاعنا ! » .

مرا ببيت الحمامصي ودق قلبها في عنف ، فماذا لو رآها أحد وقد أمسك أحمد بيدها بمثل هذه القسوة ، وهذا التشبث . . . ورغم غضبها ودهشتها ، إلا أن بريقاً من سعادة كان يبدو بعيداً بعيداً في أعمق أعماقها ، بريقاً يدفع بالنشوة

إلى كل أوصالها رغماً عنها ، في آخر الدوار الهائل ، في الطرف المواجه للكنيسة التي تشمخ في منتصف شارع الجندي ، وقف أحمد وترك يدها وفتح باب المخزن ودلف إلى الظلام في الداخل . . . ظلت زغدانة تقف في الخارج لا تعرف ماذا تفعل ، كان الظلام في الخارج حالكاً ، لكنه كان في الداخل دامساً . . . ولم يكن صوت طائرة قد ظهر في سماء المدينة حتى الآن ، وكانت الكشافات ذات الأذرع المضيئة حتى عنان السماء قد كلت من البحث فسحبت أشعتها وانطفأت . . . ودوت صفارة الأمان وأضيئت الأنوار في النوافذ خلف الزجاج الأزرق . . . وجاءها صوت أحمد من الداخل :

« زغدانة ! » .

كان النور قد أعاد إليها بعضاً من شجاعتها فتقدمت نحو باب المخزن :

« نعم يا سي أحمد أفندي ! » .

« تعالي شيلي الشوال ده ! » .

عندما اقتربت ، كان وجه أحمد يتصبب عرقاً وقد حمل الجوال الممتلىء حتى حافته بالفول المدشوش ، وبدت زغدانة كفتاة ساذجة لا تفهم شيئاً :

« إيه ده يا سي أحمد أفندي ؟! » .

« الفول ! » .

« بس دانا عاوزه كيلة ! » .

« وإذا كان شوال ! » .

« ماهو أصل الـ . . . . » .

« حاخد ثمنه كل يـوم الصبح ، تفضلي تفـطريني طعمية لحد ثمنه مايخلص ! » .

بدا لها الأمر كحلم بعيد عن التصديق ، إن هذا الجـوال يعتبر بالنسبة إليهم رأسمال ما حلموا يـوماً بـأن يبدأوا حيـاتهم بـه ، اندفعت نحـو الجوال لتحمله فتعثـرت قدمهـا وسقـطت بيديها فوق الجوال الذي كان أحمد يمسكه ، كان رأسها الآن أمام صدره تماماً فهبت على وجهها نسمة دافئـة معطرة بعـرق الشاب الذي كان ينظر إليها باسماً . رفعت إليه عينين زائغتين لا تـدري سببـاً لـزيغهمـا هـذا ، وجـاءت كلمـاتهـا متقـطعـة مهلهلة . . . قالت :

« ممكن تشَيّلني اسم الله على مقامك ! » .

في لمح البصر ، كـان أحمد يـرفع الجـوال ليضعه فـوق رأس زغدانة التي ما أن استقر الحمل فوقها حتى انطلقت نحو الباب في سعادة غامرة وهي تهتف :

« روح يـا شيـخ . . ربنـا يجعـل لـك في كـل خـطوة سلامة ! » .

« زغدانة ! » .

كانت عند الباب فتوقفت . استدارت ناظرة إليه دون رد :

تقدم منها أحمد في هدوء ، قال :

« مش عاوز حد يعرف إنكم أخدتم الفول من هنا ! » .
« طب أقول لابويا وأمي إيه ؟! » .
« قولي لهم . . بس حرصيهم ! » .
« حاضر يا سي أحمد أفندي . . . حاضر ! » .

* * *

انطلقت زغدانة من مخزن الحبوب لا تلوي على شيء ، تاركة وراءها ذلك الشاب الذي ظل مسمراً في مكانه لدقائق ، وعيناه ساهمتان ، وقلبه يدق بعنف ، لكن عقله كان يعمل بسرعة شديدة .

* * *

في ذلك الوقت بالتحديد ، كان شبيطة قد أخذ مندي إلى تريزا ، وفي ذلك المقهى المنزوي في أحد أركان شارع كان يقع على سفح الجبل ويصعد ، جلس مندي مع تريزا وهي ليست في ملابس التمريض فلم يكد يتعرف عليها . كانت تبتسم . وكان هو يبتسم . وقال شبيطة :

« تريزا . . . إنت بتتكلمي عربي زيك زي نص الملاطوه ، ماتلعبيش على الواد !

ضحك الثلاثة . . . ونهض شبيطة وهو ينظر في ساعته مخاطباً مندي :

« ما تنساش نفسك وإلا قفلوا عليك الباب وتبات في الشارع ! » .

سمع مندي ما قاله شبيطة لكنه لم يسمعه . فلقد كانت نظرات تريزا الآن تمتص كل خلية في جسده ، وكانت يداه تمتدان عبر المائدة دون إرادة منه ، ليمسك بيديها ، فإذا حمرة الخجل تكتسح وجهها المستدير الهادىء الجمال . .

وعندما نطق أخيراً قائلاً : « إزيك يا تريزا ؟! » . . . . جاء صوته ضائعاً مبدداً وجف حلقه . . .

وقبل أن ترد عليه ، أيقن مندي أن ثمة شيئاً جديداً سوف يحدث في حياته !

الصورة الثانية عشرة

لـو أن مندي حـاول أن يتذكـر ما حـدث في تلك الأيـام بـدقة ، فلن يستـطيـع ، ذلـك أن كـل شيء اختلط في ذهنـه اختلاطاً شديداً ، كانت إقامتـه في ذلك المعسكـر الذي يضم العشرات من جنسيات مختلفة ، قد أضافت إليه الكثير مما لم يحلم يوماً بأن يراه ، حتى وهو يفكر ؛ جالساً عند قمة رصيف النـورس مطلاً على الميـاه المتلاطمـة تحت أقدامـه في ميناء الإسكندرية ، لم يطف بخياله أنه سوف يعيش حياة كتلك التي عاشها في جبل طارق ، تداخلت اللهجات واللغـات في ذهنه تداخلاً شديداً ، واصطنع الرجال الذين جاءوا من بلاد متفرقة بعيدة لأنفسهم لغة خـاصة هي خليط من عـدد لا بأس بـه من اللغات الأفريقية والآسيوية والأوروبية ، كان هذا وحـده كافيـاً لأن يشعر مندي بالدوار ، وكان كافياً لأن يجعل من شبيـطة ، الذي أصبح الآن صديقه ورفيقه ، ملكاً في مملكة عرف الرجل كيف يسوس أموره فيها . .

غير أن هذا كله ، وإن كان قد أضاف إلى مندي الكثير مما أفاده بعد ذلك في حياته ، إلا أن ما حدث له مع تريزا ، كان أكبر وأعمق تأثيراً .

ففي تلك الليلة الأولى التي تركهما فيها شبيطة وحدهما ، وجد مندي نفسه أمام لغز شديد الغموض . . . كانت تريزا « مالطية » جاءت إلى جبل طارق مع إحدى البعثات الإنجليزية التي علمتها التمريض . . . كانت فتاة من ذلك النوع الصامت الذي تتحدث عيناه بأكثر مما يتحدث لسانه ، وعندما سألها شبيطة إن كانت تحب مندي ، لم ترد ، وإنما ردت عيناها ببريق كان هو الذي اختطف قلب مندي الذي راح يدق في تلك اللحظة بالذات ، بحب زغدانة البعيدة عنه . . . وعندما امتدت يده لتلامس يدها ، سارعت هذه إلى يده لتحيطها بكلتا يديها . . . وبدا الأمر لمندي ، مع بساطته المتناهية ، وكأنه ذروة ما يمكن أن يحدث في هذا الكون . . . فتبدد تماماً ! !

ولم يكن مندي ليستطيع أن يتأخر عن العاشرة مساء . . . هذه أوامر المعسكر الذي يعيش فيه ، وعندما عاد إلى فراشه ، كان شبيطة هناك ، يرقد على الفراش المجاور مفتوح العينين باسم الشفاه ، يدخن . . . وكان واضحاً تماماً أنه في انتظار مندي .

« **إيه اللي حصل يا جدع ؟!** » .

هكذا تمتم شبيطة متسائلاً وهو يحملق في مندي الذي جلس على حافة فراشه ساهماً كالمأخوذ . . . انتظر شبيطة لثوان أن يرد عليه مندي دون جدوى .

« **مالك يا جدع ؟!** » .

« **هـه ؟!** » .

« **إيه اللي بيك ؟!** » .

« **سلامتك يا ريس شبيطة !** » .

« **سلامتك انت يا بن أبويا . . إيه العبارة !** » .

ولكن عبثاً . . لم يكن في استطاعة مندي أن يقول شيئاً ، أو أن يعبر عما كـان يدور في صـدره من أحـاسيس . . كـان صعباً ، صعباً ، صعباً .

« **مندي . . . إيه عبارتك بالضبط كد. قول لي ؟!** » .

كـان شبيطة الآن يهـز مندي هـزاً . فأفـاق هـذا ممـا بـه وابتسم . .

« **إيه اللي بيك يا مندي ؟!** » .

كان القلق قد بدأ يستبد بشبيطة . . . ورد عليه مندي :

« **ولا حاجة !** » .

« **أمال ما لك ؟** » .

« **مش عارف !** » .

« **طب احكي !** » .

جاءت الكلمات الأخيرة أمراً صارماً وقد اعتدل شبيطة أمام مندي وبدأ عليه القلق واضحاً . . . أكثر ما كان يقلقه ، ابتسامة مندي الواهنة هذه ، ابتسامة كانت تنبثق من شفتين شاحبتين ، ونظرة كانت تسيل من عيني الفتى كالدموع .

« أحكي أقول إيه يا معلمي ؟! » .

« تقول اللي حصل بالضبط ! » .

« اللي حصل ؟! » .

بدا على شبيطة أنه يفقد أعصابه لسبب لم يدره مندي . . . صاح فجأة فاهتز العنبر لزئيره :

« البنت دي شربتك حاجة ؟! » .

وصاح رجل من آخر العنبر وهو يسب ويلعن طالباً الهدوء طلباً للنوم . . . ولم يلق إليه شبيطة بالاً ، بل راح يلح على الفتى :

« قول يا مندي . . قول يا جدع ! » .

وقفز الرجل من آخر العنبر مندفعاً نحو شبيطة والشرر يتطاير من عينيه ، التفت مندي نحو الرجل وعرف فيه روبي ، ذلك الإيطالي السمج الذي لم يترك رجلاً في المعسكر دون أن يشتبك معه . . . كان من ذلك النوع من الرجال الذين توحي وجوههم بالشر دون أن يقدم على شيء ، أو يصنع شيئاً ، فاحت رائحة الخمر من فمه وهو يواجه شبيطة بسيل من السباب بتلك اللغة ذات الموسيقى التي كان يطرب لها مندي ؛ نظر شبيطة إلى روبي وقال بالإيطالية ما معناه أن عد إلى فراشك ، لكن روبي عاد يصيح بأنه يريد أن ينام ، وأن صوت شبيطة يزعجه ، وتمالك شبيطة نفسه وعاد يطلب من روبي أن يعود إلى فراشه ، لم ينتبه مندي إلى أنه كان يتتبع الحوار بين

الرجلين دون أن يفهم مما كانا يقولان كلمة ، لكنه كان يفهم كل كلمة . . . في لحظة ضاق فيها صدر شبيطة بروبي نهض إليه . . . ونهض كل من في العنبر جالسين في أسرتهم ، أو مندفعين نحو الرجلين اللذين كانا يزأران في وجهي بعضهما بعنف راح يتصاعد لحظة بعد الأخرى . . . ولقد كان شبيطة ، رغم مرور الأيام ، حريصاً على ألا يدخل مع أحد في معركة ، كان يعرف ، بحسه وتجربته ، أنه أفريقي ، وأن هؤلاء الذين أصبحوا نصف أسرى ، أو نصف مسلحين ، مفضلين عند حراس المعسكر من جنود الإمبراطورية ، غير أنه في تلك الليلة ، كان لا بد له وأن يحسم الأمر ، وعندما رفع روبي قبضته في الهواء رافعاً إياها نحو وجه شبيطة في لكمة كادت، لو أنها أصابت وجهه ، تهشم عظام هذا الوجه . عندما فعل روبي هذا ، حدث ما كان الرجل يتجنبه طوال الأسابيع التي انقضت . . . وما هي إلا ثوان مضت في لمح البصر ، حتى كان العنبر قد تحول إلى حلبة للملاكمة والمصارعة معاً ، واستدار الرجال من حولهما في دائرة وراحوا يتصايحون وقد انقسموا إلى فريقين ، فريق الأفارقة والآسيويين يشجع شبيطة ، وفريق الأوروبيين يشجع روبي . . . وكان مندي يقف وسط هذا الجمع الصارخ ، ضائع النفس مبدد الوجدان .

كانت المعركة عنيفة كل العنف ، سالت دماء الرجلين ولم يكف أحدهما عن القتال ، غير أن الكفة كانت ، تدريجياً ، ما ترجح انتصار شبيطة ، كان روبي هائجاً كثور ، لم يكن هياجه

بسبب ما حدث بقدر ما كان بسبب إحساسه بالتفوق على هذا المصري ، الذي جرؤ ، ورفع في وجهه يداً . .

وعندما صاح روبي أثر لكمة هائلة أصابت وجهه : « أيها القذر ! » ، كان شبيطة قد وصل إلى ذروة اللا عودة ، فانهالت على روبي الضربات من كل اتجاه ، وفي كل موضع لجسد . . . وعندما وصل ضجيج الرجال إلى الحراس خارج العنبر ، وعندما اقتحم فريق منهم باب العنبر حاملين البنادق المشرعة صارخين بالكف عن العراك . . . كان روبي يسقط فوق الأرض مكوماً فاقد الوعي سائل الدم !

* * *

بات مندي وحده في تلك الليلة حزيناً . وكان فراش شبيطة بجواره خالياً بعد أن أخذه الجنود إلى سجن المعسكر . وبعد أن حملوا روبي إلى المستشفى فاقد الوعي . وبعد أن ساد السكون العنبر وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . ظل مندي مفتوح العينين ، تختلط الأحداث في ذهنه اختلاطاً شديداً ، وتتداخل حتى المرئيات أمام عينيه ، وها هو الريس شبيطة ، الرجل الذي أقسم ذات يوم أن يقتله كما قتل ثلاثة من جنود الإمبراطورية من قبل ، ها هو يدخل السجن من أجله ؟!

فما الذي حدث . . . وما الذي جعل مندي يصل إلى ما وصل إليه ؟!

لم يكن أمامه بد من العودة إلى الوراء ساعات ليعرف

فقط ، ما الذي وقع ؟!

* * *

قالت تريزا وكل منهما يحتضن يد الآخر في شغف :

« لازم نقوم من هنا ! » .

كانت لهجتها العربية عرجاء . لكنها كانت مفهومة . . . ولقد تعود مندي على تلك اللهجات التي كانت تملأ شوارع الإسكندرية وحواريها ، وكان يكفي لأي أجنبي أن يتحدث إليه بالعربية في الإسكندرية ، أن يعرف على الفور إن كان إيطالياً أم ألمانياً أم فرنسياً أم إنجليزياً أم أمريكياً أم . . أم . . أم أي جنسية من تلك الجنسيات التي كانت تعيش وسطهم وكأنهم أصحاب البلد . . . لم ير مندي في لهجتها أدنى غرابة ، بل العكس كان صحيحاً ، فلقد ذكرته تلك اللهجة بصوت الخواجة برطموظ الصراف المالطي الشديد الغنى ذي المعطف البالي الذي لم يغيره منذ سنوات ، والذي كان يجلس إلى مائدته الصغيرة أمام باب ستة ، يتاجر في العملات ، ويقرض البعض بفوائد كانت مثار حديث كل من كانت له حاجة .

نهض مندي مع تريزا . سار بجوارها وقد بزغت زغدانة في وجدانه . . . كان يسير معها على شاطىء المضيق فتذكر انطلاق زغدانة فوق رصيف النورس بصينية الشاي والأكواب المليئة والملعقة الصدئة وصوتها المقتحم وعينيها الخضراوين في لون البرسيم . . . وعندما أحس بذراع تريزا تحيط خصره

في الشارع ارتجف ، نظر يمنة ، ونظر يسرة ، ونظر إلى الخلف وكان الطريق المضاء بالمصابيح الزرقاء ، مليئاً بالناس الذين يروحون ويجيئون ، فهم أن ينبه تريزا إلى أن ما تفعله قد يثير الناس ويغضبهم ، غير أنه فوجىء ، قبل أن ينطق ، برأسها ينام ، وهما سائران ، فوق صدره .

كانت جميلة ، وكان جمالها من ذلك النوع الشاحب الهادىء الذي يتسلل في نعومة إلى القلب والوجدان فلا يشعر المرء إلا بكيانه كله وقد احتله إحساس غامض مخيف بالرغبة . . . سارت به وسار بها إلى حيث لا يدري . . . انعطفت في شارع جانبي ثم توقفت في بقعة مظلمة . نظر مندي إلى وجهها المتطلع إليه من أسفل ، وكانت شفتاها ترتجفان بالرغبة ، دق قلبه بعنف بالغ فابتلع لعابه ، اجتاحته الرغبة في أن يفترس شفتيها افتراساً ، لكن ثمة وهناً غريباً كان يتسلل إلى عظامه ، رفعت إليه وجهها ، ولامست شفتاها شفتيه ، فاستسلم دون إرادة ودون تفكير .

عندما أفاق مندي مما كان فيه ، وجد نفسه في غرفة صغيرة ، في بيت صغير يطل على حارة كانت تنحدر إلى حيث شاطىء المضيق ، وتتعرج مختفية وسط ركام البيوت التي ملأتها ، والتي كانت تصعد فوق سفح الجبل إلى حيث لا يدري . .

هم مندي بأن يسألها أين هما . . . فتذكر أنه دخل البيت من بابه ، وكان الأب يجلس أمام مدفأة صغيرة كانت ترسل ناراً

زرقاء اللون ، وكان يميل بنظارته الطبية العتيقة فوق جريدة وقد استغرق في القراءة فيها ، بينما كانت الأم تجلس قبالته ، أمام المدفأة وهي تعبث بأبرتين طويلتين وكرة من الخيط هائلة ، وكانت تصنع صديرياً من الصوف لأحد لا يدريه . . . وقف أمامهما معقود اللسان ، واستمع إلى الحوار الذي دار بينهما وبين تريزا ! ورآهما وهما يعودان إلى ما كانا فيه وكأن الأمر لا يخصهما من قريب أو من بعيد ، وتبع تريزا إلى حيث السلم الضيق الصغير . صعدت فصعد وراءها . فتحت الباب ، فدلف خلفها ، أغلقت الباب وارتمت في أحضانه .

في تلك اللحظة بالذات . تذكر مندي زغدانة . دفعها بعيداً عنه . قال :

« تريزا ! » .

« حبيبي ! » .

قالتها بإنجليزية سليمة . . . وعاد مندي يقول :

« آني لازم نقول لك على حاجة ! » .

عادت تهمس بالإنجليزية وهي تأخذه إلى مقعد قديم بجوار الفراش الصغير :

« أحبك . . أنا أحبك ! » .

« وأنا متجوز ! » .

لحظتها توقف كل شيء . وجمدت الفتاة في مكانها وهي

تنظر نحوه ـ لا في غضب كما توقع ـ وإنما نظرت إليه تلك النظرة الغريبة التي يصعب على الرجل ، مهما كانت خبرته ، أن يعرف لها معنى أو تفسيراً .

أحس مندي بالحرج فنهض قائلاً في أسف :

« **آني اتجوزت قبل مانسيب البلد بكام يوم !** » .

راحت تريزا تنظر إليه فهرب من نظراتها . . . كان ثمة مصباح صغير قد وضع فوق مائدة في ركن الغرفة ، وكان المصباح يرسل ذلك الضوء الأزرق الخافت . . . وهبت نسمة من خارج النافذة فتلاعبت أستارها البيضاء ، وبدا له الطريق من خلال النافذة خالياً من الناس ، ومن بعيد كانت أمواج المضيق ترسل أنغامها الرتيبة . . . وعندما تحركت تريزا نحوه ، كانت تبدو وكأنها قررت أمراً ، فلقد اقتربت منه حتى التصقت به ، أحاطته بذراعيها وهمست متسائلة :

« **وانت حاترجع مصر تاني ؟!** » .

ولم يرد ، وفكر ، قدح زناد فكره ، لكنه أبداً لم يجد إجابة ، فهل . . . هل سيعود إلى مصر من جديد حقاً ؟! . .

غير أنه قبل أن يفتح شفتيه ، كانت قد تعلقت بعنقه ، وراحت تمطره بالقبلات !

* * *

كانت الساعة الثالثة صباحاً عندما فتح باب العنبر ،

وأضيئت الأنوار ، ودقت أحذية الجنود الصارمة فوق أرض العنبر ، حتى وصلت إلى فراش مندي فتوقفت .

استيقظ في العنبر عدد من الرجال . هب البعض منهم جالساً . واكتفى البعض بأن فتح عينيه وراح يرقب ما يدور . . . وقال أحد الجنود في صرامة وغضب :

« **إنت البحار مندي ؟!** » .

« **نعم !** » .

في احتقار بالغ ، لوح الجندي بإبهامه قائلاً :

« **إذن ، إجمع كل حاجياتك وتعال معنا !** » .

ولقد فعل مندي ما أمروه به . . . غير أنه لم يكن يدري ، أن حياته اليوم قد انحرفت في مسارها انحرافاً آخر ، وأنه سوف يبيت ليلته في السجن .

الصورة الثالثة عشرة

مر يومان قبل أن يفتح باب الزنزانة على شبيطة ومندي ، مر يومان لم يقدم لكليهما سوى وجبة واحدة كل يوم . وكـان شبيطة هادئاً طوال الوقت ، أما مندي ، فلم يكن يعرف سر ما حـدث ، كما أنـه لم يكن يعرف رغم مـا حدث ، سـر ذلـك الهدوء الذي حل على شبيطة فألزمه الصمت لساعات .

في الليلة التالية اعتدل شبيطة مستديراً نحو مندي وسأله :

« لسه مش عاوز تقول لي إيه اللي حصل ؟! » .

ولم يكن أمام مندي سوى أن يستجيب للرجل فيقص عليه ما حدث ، كان أكثر ما أدهشه وجـود الأب والأم في البيت . وكان هذا مع ما كان كامناً في نفسه من إحساس بالذنب تجاه زغدانة ، هـو سر سهـومه في تلك الليلة . . . استمـع شبيطة بانتباه لكل ما قال . . . حتى إذا ما انتهى منـدي من روايته ، زام شبيطة وانقلب على جانبه الأيسر معطياً ظهـره لمندي دون كلمة .

مضت دقائق بطيئة سادهـا الصمت ، وكان منـدي ما زال جالساً مفعماً بالذكريـات . في قلبه حنين غـريب يجذبـه إلى

تريزا التي لا بد هي الآن في انتظاره ، وكان على موعد معها في اليوم التالي ، سأل شبيطة فجأة :

« ريس شبيطة ! » .

زام شبيطة دون أن يتحرك . وعاد مندي إلى الحديث :

« إلا انت كنت خايف من إيه ؟! » .

ساد الصمت وكان يبدو على شبيطة أنه يفكر بعمق . . . لكنه مالبث أن استدار نحو مندي ، ثم مالبث أن نهض جالساً مشعلاً سيجارة سارحاً بعينيه إلى بعيد . وعندما جاء صوته كان جافاً خالياً من كل إحساس :

« كنت خايف عليك يا مندي ! » .

« من إيه ؟! » .

« إلا البت تطلع من إياهم وتديك حاجة كده والا كده ! » .

لم يفهم مندي شيئاً . قال :

« بس انت عارف إني مابنشربش يا معلمي ! » .

« بكرة تشرب ! » .

« بس . . . . . »

هب شبيطة واقفاً وخطا خطوة فأصبح بجوار حائط الزنزانة الرطب :

« مش الشرب اللي كنت خايف عليك منه ! » .

« أمال إيه ؟! » .

نظر مندي طويلاً نحو شبيطة وكان هذا قد ارتكن إلى الحائط وراح يدخن في هدوء ، لكنه أخيراً اعتدل في وقفته وهو يقول :

« خفت إلا يدوك حباية وبعدها يا خدوك ورا الشمس ! » .

ازدادت دهشة مندي فنهض إلى شبيطة يريد أن يعرف . فجلس هذا رافعاً رأسه إليه :

« أصل البلاد دي فيها حرب يا جدع ! » .
« مانيش فاهم ! » .

في عصبية قال شبيطة :

« آني لما لقيت البنت غاوياك فرحت . . . مانعرفش ليه . . . ومن يوم ما اتعاركنا على المركب وآني بنحس إنك زي أخويا الصغير ، لما شفت اللي شفته قلبي انشرح ، قلت بدل ما انت متلقح آهو آديك تتسلى ، لكن . . . لكن بعد ما سبتك معاها ، كنت ناوي نرجع وناخدك تاني ، خفت عليك من الحباية ! » .

« آني حباية يا معلمي ! » .

خفت صوت شبيطة وهو يقول :

« أصل الألمان لهم رجاله هنا في الجبل ! » .

« الألمان ؟! » .
« والطلاينة ! » .
« والإنجليز مش بيمسكوهم ليه ؟! » .
« لأنهم أسبان ومن ولاد البلد ! » .

ثم أضاف شبيطة في عصبية :

« ولأنهم مش عارفينهم كمان ! » .
« طب إيه اللي بيحصل ؟! » .
« بيدوا للنفر من دول حباية مع كاس ، مع شوية شاي ، في الأكل ، أيها حاجة . . . بعدها النفر من دول ، قول عليه يارحمن يا رحيم ! » .
« إزاي ؟! » .
« إلا إزاي . . هو انت لسه بِكْر يا جدع ! » .

علت حمرة الخجل وجه مندي ، وتـذكر ، أنـه لأول مرة يعرف طعم المرأة فيها كان مع تريزا . . . تلعثم ولم يرد غير أن شبيطة عاد فاسترسل في الحديث :

«.أصـل الحرب يـا غالب يـا مغلوب ، ولأجل مـا تغلب لازمن تعمل أيها حاجة . أيها حاجة ! » .

« بيحصل إيه لما النفر من دول بياخد حباية ؟ !» .
« مخـه بيطيـر ، ما بيبقـاش عارف حـاجة في الـدنيـا إلا البنت دي . . . يديها اللي هي عاوزاه ، ويعمل كل اللي تقول له عليه ! » .
« يااااه » .

« الألمان ماخلوش حاجة ماعملوهاش . . . وبعد البت ما تملك الواد تمام . . . تصبح تاني يوم الصبح ماتلقاهوش ! » .

« بيروح فين ؟! » .

« ماني قلت لك . ورا الشمس ! » .

قفز شبيطة في عصبية نحو نافذة الزنزانة العالية . وقف تحتها ، أطل منها مشيراً نحو الجبل الذي بدا في جوف الليل وكأنه وحش أسطوري :

« شايف الجبل ده ؟! » .

« شفته ! » .

« لو خطيته حاتبقى في بلاد الأسبان عدل ! » .

« ودي فيها إيه ؟! » .

« الأسبان بيحبوا الألمان يا جدع ! » .

« يعني إيه ؟! » .

« يعني حاتلقى كام ألماني مستنظرينك ، ياخدوك لأجل ماتشتغل في السخرة لحد ربك ما يفتكرك ! » .

« في بلاد الألمان ! » .

« في أيها داهية ! » .

« تبقى أنت اتخانقت مع روبي لأجل ماتحبسني معاك هنا ! » .

« كنت فاكرك راجل وحاتخش المعركة معايا ! » .

« طب إزاي ؟! » .

ابتسم شبيطة وقد أحس أنه انكشف :

« لكن آني ماعتقتكش برضه . قلت لهم إني ماضربتوش لوحدي ! » .

صرخ مندي :

« إيه ؟! » .

« لأجل ماتنحبس ولا تطلعش تاني ! » .

« بس البنية ما اديتنيش حبوب ! » .

« مش يمكن تديك تاني مرة ! » .

« بس دي ! . . . . » .

توقفت الكلمات في حلق مندي أمام نظرات شبيطة الواثقة المحبة :

« ماتقدرش تقول يا مندي . ماتقدرش تقول ! » .

وهوى مندي فوق الفراش ذاهلاً . تحطم حلمه تماماً . أحس بغصة في حلقه . وظل طوال الليل مفتوح العينين ، بينما كان شبيطة يغط في النوم .

وعندما فتح باب الزنزانة في الصباح التالي . . . وعندما نودي عليهما وأمرا بأن يتبعا الجنود ، تساءل مندي إلى أين يأخذانهما . . فقال شبيطة من بين أسنانه :

« المحكمة ! » .

* * *

كان الفناء خالياً تماماً وقد أوغل الليل وازداد الظلام عندما

سبح صوت زغدانة متكسرا :

« بس آني متجوزة يا سي أحمد أفندي ! » .

كان أحمد الحمامصي يقف قبالتها في ذلك الركن البعيد من الفناء ، والذي يوصل إلى السلم الصاعد إلى الدور العلوي حيث تسكن العائلة بأطفالها ونسائها ورجالها وشبابها . . . ولولا الظلام الحالك لرأت زغدانة وجه أحمد الحمامصي وقد شحب شحوباً عظيماً ، غير أنها ، بحس الأنثى ، قد استمعت إلى أنفاسه المضطربة اللاهثة . . . وعاد صوت زغدانة متكسراً من جديد :

« اتجوزت قبل مانسيب إسكندرية ونيجي على هنا ! » .

« آمال هو فين ؟! » .

« ركب البحر على باب الله ! » .

« حايرجع إمتى ؟! » .

« يا عالم ! » .

« مفيش عنه خبر ! » .

« كل اللي ينزل إسكندرية وكل اللي بيجي منها مابيعرفش عنه حاجة ! » .

ساد الصمت من جديد ، وضعفت ساقا زغدانة فاستندت إلى الحائط ، في الظلام سقطت دموعها لتغمر وجهها ، كان أكثر ما يحيرها ويغضبها ويؤرقها ، هو هذا الضعف المخيف الذي تشعر به تجاه أحمد الحمامصي هذا الذي لم يتفوه بكلمة نابية أمامها . . . ولم تلمس يده يدها ، ولم يفعل شيئاً يغضب

الله . . . كسر الصمت صوت أحمد وكان يبدو أنه يتقدم منها فتراجعت حتى التصقت بالحائط :

« **بتحبيه ؟!** » .

« **مش جوزي !** » .

وهوى الصمت هذه المرة وكأنه أصبح بلا نهاية . . . فاهت زغدانة أخيراً بكلمات متعثرة :

« **ما لك يا سي أحمد !** » .

تنهد أحمد الحمامصي ، وبدا أنه يعتدل كي يمضي في طريقه :

« **أصل أنا كلمت والدتي لأجل ما تكلم أبوكي !** » .

« **على إيه ؟!** » .

« **عليكي يا زغدانة . . . عليكي !** » .

قال هذا وهو ينصرف متجهاً نحو السلم ، تلامس ذراعه بذراعها عفواً في الظلام فارتجفت ، راحت تتسمع صوت أقدامه المتسللة وهي تصعد السلم في خفة . كادت تناديه فلم يطاوعها لسانها ، تذكرت مندي فازداد هطول الدمع ليغرق وجهها سخياً . . . هبطت بجسدها لتتكوم في تلك البقعة النائية من الفناء ، إنها تحب مندي ، هذا لا شك فيه ، وهو . . هو الذي دفع مهرها ثلاثة رؤوس لثلاثة رجال اغتصبوا عفتها ، وهو . . . هو الذي غفر لها ما لا ذنب لها فيه وما كان غيره ليفعل . . . وهو ، هو الذي ركب البحر والهول في وقت

كان جميع الرجال يهربون منه من أجل أن يوفر لها حياة وعشاً يعيشان فيه . . . هو ، هو مندي الذي كان ينظر إليها في صمت فيصيبها الدوار فوق رصيف النورس ، فما بالها الآن ، ضعيفة ضعيفة أمام شاب لم يقربها ، ولم يغازلها ، ولم يقل لها كلمة سوى أنه كان راغباً في الزواج منها ؟!

شق السكون صوت المؤذن لصلاة الفجر ، وانتبهت زغدانة وهي في جلستها وكان عليها أن تسرع بنقل النصبة إلى السوق . . . نهضت فأحست أن عظامها تتكسر تحت وطأة حركتها . . . وفي مثل هذه الساعة من كل يوم كان عليها أن تحمل المائدة الصغيرة التي أخرجها الحمامصي من المخزن وأعطاها لها كي تصبح دعامة النصبة التي لم تعد الآن مقامة على الصفائح القديمة . . . كان الحال قد أصبح غير الحال . . . وكان الكومي قد وجد لنفسه مكاناً في سوق وسط المدينة أمام الفرن الافرنجي حيث يشتري الخواجات العيش ويشتريه الفلاحون كي يغمسوا به خبزهم المصنوع من الذرة . . . وكانت النصبة قد أصبحت الآن شيئاً له كيان ، ودخل الربح وفيراً إلى جيب أبيها وأصبح زبائنه من أهل البلدة كثيرون بعد أن تفننت أمها في صنع عجينة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها . . . وأصبح من الطبيعي أن تسمع أماً تطل من نافذة أحد البيوت في حارة من حواري كفر الزيات ، وهي تصيح في ابنها الذاهب إلى السوق :

« تجيب الطعمية من عند الكومي يا وله ! » .

ومنذ الشروق كان الزبائن يتزاحمون حول الكومي وزغدانة وأصواتهم تتلاحق وتتشابك وتتصارع وتتعارك والكل يريد أن يأخذ نصيبه قبل الآخر . . . كانت الدنيا في تلك الأيام قد ابتسمت قليلاً للعائلة المهاجرة ، والتي أصبحت محل حسد بقية المهاجرين . . . وكان لا بد للهمس من أن يستشري وسط الجميع ، وكان لا بد من القول بأن ماهبط على عائلة الكومي هبط من أحمد الحمامصي لغرض في نفسه من زغدانة ، وكان الأب يعلم ، كما كانت الأم تعلم ، ولكن زغدانة لم تلق بالاً إلى ما كان يقال حتى كانت تلك الليلة التي خرجت فيها زغدانة من غرفتهم لشأن من شؤونها فسمعت همساً يناديها ، وعرفت في الهمس صوت أحمد الحمامصي الذي كان يقف في هذا الركن الخفي البعيد ، وحتى وجدت نفسها تستجيب لندائه دون مقاومة ، وأن تقف معه ، وأن يحدث بينهما هذا الذي حدث !!

* * *

غير أن الحياة كان ولا بد أن تسير ، فسرعان ما استيقظت الأم وراحت تجهز العجينة بسرعة ، ونهض الأب . وحملت زغدانة المائدة فوق رأسها وقد وضعت فوق المائدة كل ما تستعمل من أوان في صنع الطعمية . . . غير أنها ، وهي في الطريق إلى السوق . سمعت أباها يتمتم :

« إحنا لازم نشتروا عربية يد لأجل ما نحط عليها النصبة ! » .

لم ترد زغدانة وظلت تسعى في الطريق الموحل دون أن تنظر تحت قدميها فلفد كانت تعرف الطريق جيداً ، خبرت مرتفعاته ومنخفضاته فراحت تسعى ساهمة مفكرة فيما كان منذ ساعات في ركن مظلم من فناء دامس الظلام . . .

غير أنهما ما كادا يصلان إلى السوق ، حتى روعهما ما رأيا . . .

كان هناك عدد من جنود الإمبراطورية مسلحين بالبنادق الرشاشة ، وسيارات مصفحة تغلق السوق من أوله حتى آخره . . . وكان الباعة هناك بموائدهم وأوعيتهم ومشناتهم يقفون ذاهلين . . . وكان الكل يسأل عن الخبر . . . وكان الخبر غريباً :

« **الكولونيل مش عاوز زحمة في سكته !** » .

وكانت هذه الجملة بالذات ، هي الإشارة الخضراء ، لطريق آخر ، كان على زغدانة أن تسير فيه مرغمة !

الصورة الرابعة عشرة

بدت البلدة في ذلك اليوم وكأنها في يوم الحشر ، كان شارع السوق هذا الذي أغلقه البوليس الحربي البريطاني في وجه الناس ، هو الشريان الذي يصل كل شوارع البلدة وحواريها ، إلى كل شوارع البلدة وحواريها . . . وكان شارع السوق هذا هو قلبها التجاري الذي يلتقي فيه كل بائع وشار . . . وبينما انسد الشارع من ناحية المزلقان حيث الطريق آت من كل القرى المجاورة ، وتجمع هناك الفلاحون بأوزهم وبطهم وبهائمهم وقمحهم . . . انسد الشارع من الناحية الجنوبية بأهل البلدة الذين استيقظوا سعياً وراء رزقهم وأكل عيالهم . . . وهناك ، وسط كل هؤلاء الناس الذين ازدحموا وتلاصقت أجسادهم واختلطت كلماتهم كانت زغدانة تقف مع أبيها وأمها التي كانت قد لحقت بهما تحمل عجينة الفلافل جاهزة للصنع .

ولا أحد يدري ما الذي حدث ، وكيف بدأ الأمر :

كان الناس يتكلمون . . . كل الناس .

كان يتحدثون عن الكولونيل الذي لا يريد زحاماً في الطريق إلى المأمور ، وكان البعض يقولون أنه صديق الملك ،

وقال آخرون إنه زير نساء اليونانيين في المدينة ، وأنه يريد أن يثبت لحبيبته أنه يستطيع التحكم في المدينة برجالها ونسائها وعيالها . . . وقال آخرون أن المأمور ـ هذا الحاكم الذي لا ترد له كلمة ويهابه الكبير قبل الصغير ويعمل له الجميع ألف حساب ـ ليس سوى « شرابة خرج » أمام الإنجليز . . . واحتدم الجدل بين اثنين من الرجال فصرخ أحدهم فجأة : « يحيا النحاس باشا ! » . . . وتردد الهتاف تلقائياً غير أن الصمت خيم على الجميع فجأة . . . عندما ظهر المأمور من ناحية المركز ، وكان يركب حصاناً . . .

كان شارع السوق في كفر الزيات يبدو خالياً في تلك اللحظات الغريبة . . . فتحت الدكاكين ووقف أصحابها أمامها ينظرون هنا وهناك وليس هناك من بيع أو شراء . . . وتجمع الناس فيما بعد الفرن الافرنجي في كتلة بشرية تسد عين الشمس . . . وكان حصان المأمور يتهادى أمام عربة جيب صغيرة تسير بجوارها دراجة بخارية كان كل أهل البلدة يعرفونها جيداً ، فهي للسارجنت جون قائد البوليس الحربي الذي يشرب البيرة منذ الصباح حتى المساء ويطل على الناس بوجهه الأحمر القاني وعينيه الزرقاوين اللتين تنفثان على البشر كراهية وتعالياً لا يعرف أحد سببهما . . . وعندما توقف المأمور أمام السارجنت بحصانه ، ترجل . . . نزل من فوق حصانه ، وراح يتحدث إلى الشاويش الإنجليزي .

وقتها . . . عم الصمت الجميع .

عم الصمت وساد السكون وتركزت آلاف العيون على الرجلين اللذين كانا يتحدثان معاً . . . ولكن . . . . . .

ولكن . . . بينما كان المأمور الذي يضع على كتفيه تاجين لامعين يزغللان الأعين ويخيفان الناس من حضرة « الصاغ » ، أو سعادة البيه المأمور ، كان الشاويش الإنجليزي الذي يضع على ذراعه ثلاثة أشرطة بيضاء ، يقف مائلاً في استخفاف ، سيجارته بين شفتيه ، وإحدى قدميه فوق سلم السيارة الجيب . . .

ولا أحد يدري ما الذي حدث . . . غير أن الناس رأت بعيونها المتوترة النظرات أن الحديث كان يحتدم ، وأن المأمور كان يلوح بيده ، وأن السارجنت كان يعتدل في وقفته متحدياً ، وأنه ، إمعاناً في التحدي قد ألقى بالسيجارة التي بين شفتيه إلى الأرض ، ووضع يديه في خاصرته وهو يزعق في وجه المأمور مشيراً إلى حيث المركز كمن يطرده . . .

ولا أحد يدري أيضاً من صاحب الصوت الذي ارتفع صارخاً ليسبح فوق رؤوس الجميع :

« **تحيا مصر !** » .

ومرة أخرى تردد الهتاف تلقائياً ، رددته هذه المرة ألوف الأفواه ، والتفت المأمور إلى حيث كان الناس قد تحولوا إلى كتلة بشرية هائلة وغاضبة . . . ورد السارجنت على تلك الحركة بصيحة استعد لها الجنود الواقفون أمام سور الأجساد

الذي بدأ يتحرك مع كل هتاف يصدر ، وقد اعتلى كتفي رجلين شاب بدا غاضب الوجه والعينين ، وعرف فيه الناس أحمد الحمامصي . . .

رفعت زغدانة رأسها من وسط الناس وهي تحمل ما تحمل من أدوات النصبة ، لتجد أحمد وهو يهتف بكل ما في حنجرته من قوة :

« **يحيا النحاس باشا !** » .

والناس ترد . . .

« **تحيا مصر !** » .

والناس ترد !!

« **نموت وتحيا مصر !** » .

والناس تهتف . . .

ثم . . . ثم دوت فوق الرؤوس طلقة !

وانطبعت فوق صدر أحمد الحمامصي دائرة من الدم حمراء اللون . . . وارتفعت ذراعه في الهواء كمن يهم بالهتاف . . . لكن الذراع توقفت ، والصوت انحبس ، وهوت الذراع ، ومن بعدها الجسد . . . ثم . . . ثم قامت بعدها القيامة !!

* * *

والليل والظلام ونور القمر شاحب حزين وها هو النيل

يزحف منذ أن كان حتى تحين الساعـة . . . الصراخ والبكـاء والدم والموت وكأن كل ما حدث ليس سوى كابوس ولا بد أن تفيق زغدانة وتصحو ذات ساعـة لتحمل « العـدة » وتسير إلى السوق وتبيع الفلافل وتعـود إلى البيت وتتذكـر مندي وتتمـزق شوقاً وألماً وضياعاً . . . وعندما حدث ما حدث تحولت البلدة إلى كرة ملتهبة من الغضب راحت تحرق وتدمر وتقتل وتسفك الدماء . . . سقط أحمد الحمامصي قتيلاً وانفجر الناس فمزقوا جنـود الإمبراطـورية شـر ممزق . . . انـطلقت الأعيرة النـارية وأصيب رجـال ونسـاء وسقط الكـومي وزوجتـه تحت الأقـدام فسرعان ما عبرت الكوبري سيارات الإنجليز تحمـل جيشاً من جميع الأمم راح يصب النار على الناس صباً كالمطر ، اختلط الحابل بالنابل واهتزت أسلاك البرق واحتل جيش الإمبراطورية الـذي عسكر في البـر الثاني من النيـل مدينـة كفر الـزيات ، صرخت زغدانة ولطمت وأنشبت أسنانها في عنق جندي أحمر الوجه أزرق العينين ولم تترك العنق إلا وقد قضمت بلعومه وهي تصرخ : « آبا . . . آمـا » . رأت أباهـا بذراعـه العاجـزة وهو يسقط بعد أن تهشم رأسه بكعب بندقية إنجليزية راح حـاملها يهوي بها فوق رأسه في غل أصاب أمها بالجنون . . . هجمت على الجندي وقد ألقت بالعجينة فـوق وجهه وراحت تضـرب وتصرخ وتصرخ . . . عينا زغدانة تائهتـان تنظران ذات اليمين وذات اليسار وإذا سونكي حاد النصل يخترق ظهر الأم فتسقط هي الأخرى تحت الأقدام . . . حوصرت المدينة ومنع الناس من السفر وسمعت زغدانة ساعة العصر أحدهم يقول أن الراديو

لم يذع شيئاً عن الخبر وأن الرقابة سوف تمنع نشر ما حدث في الصحف فالإمبراطورية في حالة حرب والأحكام العرفية معلنة والحكومة لعبة في يد الإنجليز الذين هتكوا كرامة المدينة وضربوا مأمورها وقتلوا رجالها ونساءها . . . لم تفقه زغدانة كلمة مما قيل غير أنها وعته وظلت تذكره وقد عادت ، أو أعادوها ، إلى غرفتها فإذا هي وحيدة . . . باتت المدينة في تلك الليلة وفي كل بيت مأتم . . . لم ترتد زغدانة السواد ولم تصرخ ولم تلطم ولا تدري ما الذي فعلوه بأبيها وأمها ، أدخلوها غرفتها فدخلت ، أجلسوها فجلست ، تحدثوا إليها فلم ترد . . . كان كل شيء يبدو بغيضاً كريهاً ولم تكن تريد أن ترد أو تتحدث ويا ليتها تنسى ولا تتذكر شيئاً مما كان . . . فهل يعود أبوها وتعود أمها مثقوبة الظهر مرة أخرى ؟! . . . في المساء كانت الشوارع خالية ومنع الناس من مغادرة بيوتهم . . . فتح الباب ودلفت ذراع تحمل مصباحاً ورفعت زغدانة عينيها لترى على ضوء المصباح وجهاً مستديراً شديد البياض شديد الجمال شديد الحزن . . . وعرفت زغدانة صاحبة الوجه ، الست دولت سيدة نساء الحمامصي ورجالهم معاً ، أم أحمد الذي سقط اليوم مثقوب الصدر برصاصة جندي إنجليزي وهو يهتف تحيا مصر . . . امتدت يد السيدة إليها فنهضت معها ، ومن كان يستطيع أن يقول للست الكبيرة لا ! غادرت الغرفة مطيعة ، وصعدت السلم لأول مرة إلى حيث كانت عائلة الحمامصي تقطن . . . حيث البيت المسحور الذي سمعت عنه . . . أجلستها الست دولت بجوارها فوق

الكنبة، وأمرت لها بالطعام فجاؤوها بصينية قد امتلأت بالأطباق والأطعمة . . . أمرتها أن تأكل فأكلت ولم يكن للأكل طعم ولا مذاق، غير أنها ما أن ابتلعت لقيمات حتى تحرك في صدرها شيء . . . لم تكن زغدانة قد تناولت الطعام منذ أن استيقظت وها هو الليل ينتصف وهي تبتلع الطعام فيسيل الدمع من عينيها مدراراً . . . ربتت إحداهن على ظهرها مواسية فجاء صوت الست الكبيرة آمراً :

« سيبيها تعيط ! » .

وانفجرت زغدانة في البكاء لأول مرة . . . بكاء ليس كالبكاء، ونحيب ليس كالنحيب، لكنه شيء لا وصف له . . . لا تعرفه زغدانة ولم تعرفه . . غير أنه ينبع من أعماق أعماق أعماقها، وشيء واحد يطوف برأسها . . . فهل قدر لها أن تولد كي تعيش في بحر من الدماء ؟!

* * *

لم يكن السجن سجناً، ولا كانت الزنزانة زنزانة .

كان السجن مكاناً يربض تحت سفح الجبل، وكانت الزنزانة كوخاً خشبياً . . . وكان الحكم قد صدر على مندي وشبيطة بالسجن ستة أشهر، والعمل لحساب السلطة !

ضحك شبيطة وهو يدلف إلى الغرفة الخشبية قائلاً :

« ما هو هنا زي هنا ! » .

« بس ده سجن يا ريس شبيطة !! » .

« والحته اللي كنا فيها كانت إيه ؟! » .

« على الأقل كنا بنخرج ! » .

ضحك شبيطة وهو يلقي بنفسه فوق فراش صغير :

« هانت . . . فات الكتير ما بقى إلا القليل ! » .

صاح فيه مندي غاضباً :

« آني قليل ده يا معلمي . داحنا لسه في أول ليلة ! » .

« مين عارف حانخرج من هنا إمتى ! » .

ومنذ أن صدر الحكم من فم الضابط الإنجليزي ذي الملابس الصفراء والشفتين الرقيقتين الصارمتين ، ومندي يمكر فيما يمكن أن يحدث له .

« ولا حاجة . . . يا أما حابشغلونا في الفاعل ، يا أما حايشغلونا أي حاجة لحد ما نخرج ! » .

« كان لازم تضرب روبي يعني ؟! » .

رفع شبيطة عينيه نحو مندي فارتجف هذا . . . كانت في العينين نظرة غريبة . نظرة اختلط فيها الألم بالعتاب ، وجاء صوت شبيطة معاتباً :

« انت اللي بتقول ده يا مندي ؟! » .

أحس مندي بالخجل . أرخى بصره وسار إلى فراشه وتمتم بكلمات اعتذار بلا معنى .

« هـو انت من يـوم المـركب مـا غرقت كنت عايش يـا جدع ؟! » .

ظل مندي صامتاً مطرقاً وقد آلمه أن يجرح شعور شبيطة .

« تريزا وحشتك يا مندي ! » .

ولأول مرة ينتفض مندي وقد أدهشه ذلك الحنان الذي كان يسيل من كلمات شبيـطة . . . سـاد الصمت بينهمـا طـويـلاً طويلاً ، كان مندي يحملق في وجه شبيطة الغـريب التقاطيـع وشاربه الكث المهول ، وكان قلبه يدق في عنف .

« أوعى تكون وقعت يا جدع ! » .

وتساءل مندي بينه وبين نفسه إن كـانت دقات قلبـه حنيناً إلى تريزا أم حناناً نحو شبيطة .

« اللي زينا مالوش في الحب يا مندي ! » .

نهض مندي سائراً نحو شبيطة . جلس إلى جواره نـاظراً إليه في توسل كمن يستزيد .

« اللي زينا يا بن الناس كل يـوم في حتة ، وكـل يوم في بلد . وكل يوم في حضن واحدة شكل ! » .

هم مندي بالحـديث فلقد نبتت زغـدانة في صـدره فجأة كشجرة تطاول السماء سموقاً .

« وآهو اللي له بيت له بيت ، واللي له ولاد له ولاد . . . إنما هو فين والبيت فين والولاد فين ؟! » .

كان شبيطة الآن حزيناً حزيناً . . . وكانت عينا مندي قد تشبثتا به وهو يسير نحو النافذة التي تطل على الجبل الذي بدا لونه في الليل مخيفاً . . . وتنبه مندي إلى أنه لا يعرف عن شبيطة شيئاً ، تذكر أنه اقسم ذات مرة أن يقتل شبيطة فإذا به اليوم على استعداد لأن يموت في سبيل الرجل الذي أقسم على قتله !

« وهو أنا كنت خايف عليك من إيه ؟! » .

« من الحباية ! » .

« مش بس يا مندي . . . مش بس ! » .

كان شبيطة الآن يستدير نحو مندي وقد جرفه الانفعال فاستسلم له دون مقاومة .

« أمال من إيه كمان يا معلمي ! » .

« من الزفت اللي بيقولوا عليه حب ! » .

نهض إليه مندي وقد جرفه الشوق والحنين إلى زغدانة .

« إلا انت عمرك ما حبيت يا ريس شبيطة ! » .

اندفع شبيطة مبتعداً عن طريق مندي . . . سار إلى حيث كان فراشه وألقى بنفسه فوقه ودفن رأسه في الوسادة وجذب البطانية فوق جسده وهو يقول :

« تصبح على خير يا بن أبويا ! » .

. . .   .

كان مندي يعلم أن قوة سطح الأرض لا تستطيع أن تجبر شبيطة على الحديث ، أدهشه ما حدث لكنه أجل الحديث لوقت كان يعلم أن شبيطة سوف يتحدث فيه ، أحس للحظات أن هذا الرجل قد امتلأ بالآلام إلى الحد الذي جعل من اسمه « شبيطة » . . . تمدد مندي فوق فراشه ، وراح يرقب السقف الخشبي ، وأطفىء النور وعلت في الخارج صيحات الجنود تأمر الجميع بالنوم . . . فلفته الأحلام !

. . .   .

. . .   .

ومضت الأيام ، وكان لا بد أن تمضي . . .

مضت الأيام وهما يخرجان للعمل في الميناء حيناً ، وفي معسكرات الجيش الإنجليزي حيناً . . . حتى جاء يوم ، بدا فيه شبيطة كسيف البال . . . وعندما دلفا إلى غرفتهما الخشبية ، سأله مندي عما به ، فقال شبيطة في اقتضاب :

« روبي جه السجن ! » .

الصورة الخامسة عشرة

الموت والدم والقتل والشقاء ولا شيء آخر في حياة زغدانة ، ولقد مرت أيام طويلة وهي تعيش في بيت الحمامصي ـ فوق ـ رفضت الست الكبيرة أن تدعها تعود إلى غرفتها في الحوش الكبير وسط المهاجرين ، مضت الأيام وأقيمت محاكمات وحبس رجال وصبيان ونساء من كفر الزيات ، خلت الشوارع من المارة وامتلأت بدراجات وجنود البوليس الحربي البخارية وحاملات الجنود المشرعين سلاحهم في وجه المارة . . . عاشت المدينة أياماً كئيبة لا يخرج الناس من بيوتهم . . . لا يبيعون ولا يشترون ، وكم من مريض عانى من الألم أو مات لأنه كان ممنوعاً أن يخرج أحد من بيته في غير الساعات القليلة التي حددها الكولونيل الإنجليزي في وسط النهار ليجد الناس ما يحتاجون إليه . . . وحتى تلك الساعات القليلة لم تكن تخلو من أحداث تحدثت بها المدينة سراً . . . قتل جندي أخطأ وخطا في حارة جانبية وحده فوجدوه مذبوحاً في خرابة ، وقامت الدنيا وقعدت وقبضوا على حسين أفندي الذي يسكن في المنزل المجاور ، موظف التليفونات المحترم المصلي الذي لم يعرف العيبة في حياته ويكفي خيره شره هو وأسرته . . . وذات مرة نشبت معركة بين بعض شباب المدينة

وجنديين من جنود الإمبراطورية كان أحدهما هندياً راح يصرخ في الشبان عندما استولوا على بندقيته وسددوا السونكي إلى صدره : أنا مسلم . لا إله إلا الله . وكاد حامل البندقية يتراجع ولكن عبوده ابن الأسطى خميس الميكانبكي دفع بالبندقية إلى صدره وهو يصرخ :

« وكان فين إسلامك لما قتلت الناس في السوق يا ابن الـ . . . . » .

حكايات وحكايات وقصص وحواديت كانت تسمعها زغدانة في مكانها الذي لم تبرحه . . . كانت زغدانة صامتة صمت القبور منذ أن حدث ما حدث ، وكم حاولت الخادمات الآتيات من القرى المجاورة أن يخففن عنها ، وكم حاولت الست الكبيرة التي تحركت بجسدها السمين الثقيل لتعبر الشقة من أقصاها إلى أقصاها ، ليأتوا بمقعد تجلس عليه أمام زغدانة المكومة على الأرض الساهمة الشاحبة التي لا تقبل على الطعام إلا لماماً ، لتجلس السيدة الوقور المتشحة بالسواد حزناً على ولدها الذي ضاع في شربة ماء ، وحاولت هي الأخرى مع زغدانة .

لكن زغدانة لم تنطق . . . قالت واحدة من الخادمات أن عفريتاً قد ركبها وأنها تحتاج إلى زار . . . فهل يقام زار في البيت ودماء الموتى منه لم تجف ؟! . . . وقالت أخرى أن أم سعيد الندابة تستطيع أن تفك عنها ما بها ، وجاؤوا بأم سعيد ، وكانت سيدة طويلة نحيفة مثل نخلة ، لها وجه أسمر مستطيل

وعينان جميلتان نفاذتان ، وصوت رجل أجش ، يقولون أنه صوت الجني الذي خاواها والذي تلبس جسدها . . . جلست أم سعيد أمام زغدانة وراحت تحدثها وتحدثها ولا تكف عن الحديث ، كانت الخادمات يرحن ويجئن ويتفرجن وينقلن الأخبار أولاً بأول إلى الست الكبيرة التي كانت قد فتحت قلبها لزغدانة ، فهي ، هي الشيء الباقي لها من رائحة ولدها الذي سقط شهيداً برصاص الإنجليز وهو يهتف بحياة مصر !

ولكن حتى أم سعيد التي لم تستعص عليها حالة منذ أن كانت ، فشلت مع زغدانة ، وظلت الفتاة صامتة ذلك الصمت الغريب الذي كان يطل من عينيها نظرات ميتة تائهة مخيفة . . . يومها ، قالت أم سعيد وهي تجلس على الأرض تحت قدمي الست الكبيرة المتربعة بجسدها الهائل فوق الكنبة ، قالت أم سعيد :

« مفيش فايدة يا ستي أم المرحوم . . . لازم لها زار ! » .

« يا ندامتي . . . زار قبل الأربعين يا أم سعيد ! » .

« الشر بره وبعيد يا ستي . . البنية مش واعية ، وسيدها راكبها وعاقد لسانها ! » .

« الناس تقول علينا إيه ؟! » .

شهقت أم سعيد ، وأشعلت سيجارة بعد أن خبطت بكفها فوق صدرها ، ثم نفثت الدخان وهي تقول :

« ما يقول الناس اللي يقولوه ، البنية حاتروح من

إيـديكي ، أنـا عـارفـة الصنف ده من بسم الله الـرحـمن الرحيم ! » .

صمتت الست الكبيرة طويلاً ، ومدت يدها تحت وسـادة الكنبـة وأخرجت علبـة نشوق فضيـة ، وفتحتها وأخـذت منها بـأصبعيهـا وراحت تـدس النشـوق في فتحتي أنفهـا وتتنفس بعنف . ثم ساد الصمت بعد ذلك .

لكن الست أم أحمد نطقت أخيراً :

« طيب يا أم سعيد . . عاوزه إيه ؟! » .

« اسم الله على مقـامك ديـك أحمر فيـه علامـة بيضـة ، وعضمة من الترب ! » .

ارتجفت الست الكبيرة عندما جاء ذكـر المقابـر . نظرت إليها أم سعيد في أسى ودمعت عيناها وقالت :

« والنبي ماني عارفة إيه حكاية قلبك الحنين ده ! » .

« يعني أسيب البنت تروح من إيدينا يا أم سعيد » .

« أنا ماقلتش كده . . . بس كل من حي وله بلوته ! » .

همست الست الكبيرة :

« أحمد كان عايزها !! » .

« اسم الله على مقامك . . . وهي كانت من مقام المرحوم يا ستي ! » .

« لولا إنها مكتوب كتابها كنت اديتها له ! » .

« ربنا يخليكي للكبير قبل الصغير ! » .

تنهدت الست الكبيرة وهي تدس في يد أم سعيد ورقة مالية خضراء اللون :

« **جنيه آهو يا أم سعيد !** » .

فهتفت هذه بفرح :

« **الوقت اتمسى علي . . . والخروج ممنوع إلهي يورينا فيهم يوم !** » .

« **باتي هنا يا أم سعيد !** » .

ولم تكن أم سعيد تريد أكثر من ذلك . فلقد طلبت بخوراً وناراً ، وصعدت إلى سطح البيت ومكثت هناك ساعة وبعض ساعة ، وعادت تحمل ديكاً أحمر اللون به علامة بيضاء . . .

هرولت الخادمات هنا وهناك : وسرى الهمس بين أهل البيت أن الجان جاؤا لأم سعيد بالديك ، فليس في عشرات الدجاجات التي تسعى فوق السطح ديك له هذا اللون فمن أين أتت به هذه الولية التي دخلت على الست الكبيرة ساعة العشاء وفي يدها الديك المطلوب من الجان . . وهتفت بصوتها الأجش : « وحياة النبي ومن نبى النبي ومن جعل النبي نبي يا ستي أنا كنت حاروح فيها ! » .

توقفت الست أم أحمد عن الطعام وهي تحملق في الديك الأحمر :

« **جبتي الديك ده منين ؟!** » .

« **من الأسياد يا ستي . ماكانوش عاوزين . بيقولوا إن**

اللي على زغدانة رذل ومؤذي ! » .

« وبعدين يا أم سعيد ! » .

« ولا قبلين . . . أديني باتحايل عليهم من ساعة ما طلعت فوق السطح لحد ما رضوا ! » .

« والزار ؟ » .

« مـانـا قلت لهم إنـه مـا يصحش والمـرحـوم لسـه ماربعنش !! » .

« ورضيوا ؟! » .

« وهم يقدروا يرفضوا لك طلب ؟! » .

وانفجرت الست الكبيرة في بكاء حار ، استمر حتى منتصف الليل ، وباتت ليلتها تلك وقد أسعدها أن سكان ما تحت الأرض من الجان كرموا ولدها ، وأن الأمل في شفاء زغدانة بات وشيكاً !

* * *

وكانت زغدانة ، عندما دخلت عليها أم سعيد تحمل في يدها الموقد وقد توهجت نيرانه من قوالح الأذرة المجففة المرصوصة فيه بعناية خاصة ، كانت لا تفكر إلا في شيء واحد . . . هو الهرب !

كانت الأيام التي مضت أياماً عجيبة ، فكرت في الموت أولاً ، أن تقتل نفسها وأن تستريح من هذه الدنيا ، قالت ، فيما قالت لنفسها ، أنها « وش نحس » ، وأنه بسببها قتل مندي ثلاثة رجال . . . وأنها في السوق رأت أباها وأمها يقتلان ولم

تدفنهما ولا تعرف لجثتيهما مكاناً ، فلم لم تُقتل هي ؟! . . .
قالت أن أحمد الذي أحبها قتل . ومندي الذي تزوجها
هج من البلاد وسافر إلى حيث لا يعلم إلا الله . . . وأنها يجب
أن تموت ، أو . . . أو . . . تقتل هؤلاء الذين كانوا سبباً في
كل ما حل بها من مصائب .

القتل . . .

كلمة كانت تبدو لها ذات يوم ، عندما كانت صغيرة ، منذ
بضعة أشهر فقط ، رهيبة وبشعة وغير محتملة . . . لكنها الآن
أصبحت كالصديق الملازم لها . . . فهي تلاحقها في كل
مكان ، وإذا كانت هي السبب في كل هذه الدماء التي
سالت ، وإذا كان اقترابها من أحد قد يؤدي به إلى الجحيم ،
فلم لا تفعل مثلما فعل مندي . . . لم لا تقتل العساكر
الإنجليز . . . لم لا تأخذ بالثأر . . . ولكن كيف ؟!

وعندما يعود مندي ذات يوم سوف تحكي له . ولا سبيل
إلى تحقيق الثأر إلا بالهرب من كفر الزيات ، والعودة إلى
الإسكندرية حيث يكثر جنود الإمبراطورية هناك . . . وهكذا
قررت زغدانة أن تهرب ، وأن تذهب إلى المحطة ، وأن تركب
القطار . . . وكانت هذه الليلة التي دخلت عليها فيها أم سعيد
هي الليلة التي قررت فيها زغدانة أن تنفذ خطتها . . . ولكن
كيف ؟!

انطلق البخور وتوهجت نيران القوالح في الموقد الموضوع
وسط الغرفة ، وراحت أم سعيد تتمتم بكلمات مبهمة

وصرخات مكتومة وشهقات مخيفة . . . وعندما أخرجت من ملابسها ذلك السكين الماضي ، وعندما هوت على الديك المقيد بجوارها لتفصل رأسه عن جسده ، وتغرف من دمه الدافىء وترش به وجه زغدانة ، حتى أطلقت هذه صرخة رعب هائل ، هاهو القتل يلاحقها مرة أخرى ، وها هو وجهها ملطخ بالدماء ، وها هي الدماء دافئة . . . فراحت تصرخ وتصرخ . . . وكانت أم سعيد تزداد تلاحقاً في تمتماتها وتعاويذها ، وكانت الخادمات قد تجمعن أمام باب الغرفة في هلع وقد سمعن إحداهن تقول : إن الجني يرفض أن يغادر جسد زغدانة ، لذا فهي تصرخ من العذاب . . . و . . . وفوق صرخات زغدانة التي راحت تتلاحق في عذاب ، تعالت كلمات أم سعيد وهي تأمر الجان بحق هاروت وماروت وما هب وما دب وما تحت نور الشمس والقمر أن يغادر جسد زغدانة على غير رجعة في سلام .

الدماء والنيران ورائحة البخور الخانقة والصرخات تنحبس في حلقها ، وصدرها يضيق وإذا بها تنتفض مندفعة إلى باب الغرفة ، تلاحقها تماتم أم سعيد وتعاويذها وكلماتها .

انطلقت زغدانة تجري في البيت الواسع على غير هدى ، كانت تخرج من غرفة لتدخل غرفة ، وكان منظرها بشعاً وقد تلطخت ملابسها ووجهها بالدماء . . . راحت زغدانة تتردد فيها. بين الحيطان ككرة تنقذف بلا سبب . . . حتى إذا ما اندفعت في لحظة نحو الباب المؤدي إلى السلم ، صرخت فيها أم

سعيد أن تعود . . . ولكن هيهات !

وعندما اخترقت زغدانة الفناء وسط السكان من المهاجرين الذين خرجوا من غرفهم ووقفوا أمام أبوابهم ، البعض منهم يعلق ، والبعض يتلو أدعية ، وآخرون يقرأون قرآناً ، عندما اخترقت زغدانة الفناء مندفعة لى الباب المؤدي إلى الطريق ، لم تسمع النداءات والتحذيرات من جنود الإمبراطورية الذين يجوسون طوال الليل في الشورع بحثاً عمن غادر بيته ليعطوه نصيبه ، رصاصة في الصدر !

* * *

غير أن زغدانة ، وقد غسل وجهها هواء الليل البارد ، بدأت تفيق مما كانت فيه . كانت تجري من شارع إلى شارع ، ترى دورية إنجليزية فتختبىء منها في مدخل بيت أو خلف جدار أو في خرابة . . . كان لها هدف واحد ، وكانت تعرف الهدف. . . هو أن تصل إلى محطة السكة الحديد، وأن تركب قطاراً إلى الإسكندرية وأن يحدث لها بعد ذلك ما يحدث!

عندما جاء الصباح لم يجدوا لزغدانة أثراً في المدينة . . . قيل إنها غرقت في النيل ولكنهم مسحوا المياه وقاع النيل بالشباك ذات السنانير الهائلة دون جدوى ، فتشوا المقابر ، وسألوا الجيران والناس ، ولكن زغدانة كانت قد اختفت تماماً . كانت وكأنها ذابت في الهواء .

بعد يومين كانت أم سعيد تجلس أمام الست الكبيرة

لتواسيها قائلة :

« **خطفها يا نضري ، خطفها اللي ما يتسمى !** » .

وكانت الست أم أحمد تبكي في صمت . وفي أحيان أخرى كانت تنهنه فيهتز جسدها المترهل اهتزازاً عنيفاً . . . وأكدت أم سعيد أنها قالت بأن لجني الذي خاواها كان عنيداً وقاسياً ، وأنه استشوى الديك ، وطلب خروفاً يذبح قبل آذان الفجر بساعة ويفرق لحمه على الفقراء . . .

وهزت الست أم أحمد رأسها . وافقت على ذبح الخروف . فقط تعود إليها زغدانة .

* * *

في ذلك الوقت كانت زغدانة في مكان آخر . كانت تقبع في سبنسة قطار من قطارات البضاعة . يجلس أمامها كمساري يرتدي بذلة صوفية تقيه البرد . وكانت ترتجف . وكان الرجل الذي لا يعرف اسمها ولم تعرف اسمه ، يخلع المعطف الثقيل من فوق كتفيه كي يدثر به زغدانة وهو يسألها للمرة العاشرة : من هي ؟ وما الذي حدث ؟ هل هم الإنجليز الذين فعلوا بها هذا ، أم أن هناك شيئاً آخر .

ولزمت زغدانة الصمت . . . كانت ، وهي تهتز مع القطار ، تفكر في شخص واحد . شخص واحد هو الذي بقي لها في هذه الدنيا . . . وكان هذا الشخص هو مندي ! !

فأين هو مندي الآن ؟

الصورة السادسة عشرة

كانت زغدانة ، في ذلك الوقت الذي تقبع فيه أمام كمساري السبنسة ناظرة إليه بعينين تائهتين ، تفكر في مندي ، كان هو الوحيد الذي تبقى لها في هذه الدنيا . . . ولكن أين هو مندي ؟!

وكان الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره ويبدو للعين لكثرة ما عانى في حياته أنه قد تجاوز الستين ، قد خلع معطفه الميري الثقيل رغم السعال والروماتيزم اللذين كانا قد هدا جسده هداً ، ودثر به تلك الفتاة التي ظن أنها عفريت أو جان ، كانت ، عندما قفزت إلى سبنسة القطار بملابسها الملطخة بدماء الديك ، تبدو وكأنها ارتكبت لتوها جريمة قتل غسلت فيها ملابسها بدماء القتيل ، وكان القطار يسير ، يقطع طريقه بين الحقول ، ولم يكن هناك مفر من قبوله للأمر الواقع . . . غير أن هذا الأمر الواقع سرعان ما تحول في نفس الرجل إلى واقع آخر عندما رأى عيني زغدانة الزائغتين ، عندما رأى ارتجاف جسدها وشحوب وجهها وضياعها . . . قدم لها كوباً من الشاي ، سألها عما بها فلم ترد . . . لم تستطع أن ترد . . . كانت تبحث في ذهنها عن شيء تقصه أو تحكيه دون

جدوى ، لم تكن تفكر إلا في منـدي ، فقط هو منـدي الذي استطاع أن ينتقم لها من الإنجليز في البداية ، وهو مندي الذي يستـطيـع الآن أن ينتقم لهـا من الإنجليـز بعـد مـا قتلوا كـل أحبائها ، كل من تعرفهم . . . فأين مندي الآن ؟! . . . هكذا كانت تتساءل ، ولكن مندي ، في ذلك الوقت بالذات لم يكن يفـكر في شيء إلا في الريس شبيـطة . وما قـد يجـره مجيء روبي إلى السجن من أحداث !

* * *

يوم أن وصل روبي إلى السجن . . . تـأكد منـدي ، كما تأكد شبيطة ، وقال كل من كان هنـاك وسمع بمـا حدث ، أن روبي لم يأت إلى السجن عفواً ، بل لقد وصلت الأخبار ، قبل ظهور روبي مع المساجين الجدد بأنه افتعل مشاجرة كسر فيها فك رجل ، كي يحكم عليـه بالسجن ، كي يـأتي إلى شبيطة وينتقم منه !

ولم يضيع روبي وقتاً ، ولقد حرص حراس السجن على وضعه في مكان آخر بعيداً عن شبيطة ، لكنه ، بالرغم من هذا أعلن ، وفي وضوح ، أنه قد جاء كي يقتل شبيطة !!

ووصـل الخبـر ـ أثنـاء العمـل في الصبـاح ـ إلى منـدي وشبيطة في نفس الوقت ، وغمغم شبيطة ساعة الغداء ، وهـو يلتهم ما في طبقه بسرعة :

« **مانا عارف !** » .

وهكذا عاش الرجال داخل السجن أياماً من القلق وهم ينتظرون ما سوف يحدث إذا ما التقى الرجلان . . . وكان لقاؤهما يتم ، بالضرورة ، في تلك الساعة التي كان يقضيها نزلاء السجن ، قبل الغروب ، في الفناء . . . يسيرون فيها جيئة وذهاباً ، أو يقبعون بجوار الجدران ، بعضهم ساهم ، وبعضهم يثرثر ، وبعضهم يدبر . . .

ولقد كان مندي قلقاً على صديقه أشد ما يكون القلق ، وكان قلقه يزداد كلما مضى يوم ، فلقد انقسم السجن تدريجياً وبشكل تلقائي ولا يعرف أحد كيف تم هذا ، إلى فريقين . . . فريق أحاط بروبي وراح يناصره ، وفريق أحاط بشبيطة وراح يشجعه . . . وجاء وقت ، كان النزلاء فيه ينقسمون إلى هذين الحزبين كي يجلس كل منهما تجاه الآخر . .

وكان شبيطة صامتاً . . .

وكان مندي يشعر أن الأيام تضيف إليه سنوات من العذاب بلا نهاية ، وكان إذا ما اختلى بشبيطة ، تساءل :

« **ناوي على إيه يا معلمي !** » .

وكان شبيطة يرد في اقتضاب :

« **خليك انت بعيد يا مندي !** » .

وكثيراً ما داهمت مندي الأحلام والكوابيس ، كثيراً ما كان ينهض من نومه في جوف الليل لاهث الأنفاس يتصبب العرق

من كـل جسده وقـد رأى المعركـة ـ في المنام ـ محتـدمة بين روبي وشبيطة ، وكان روبي دائماً ، في كل حلم أو كابوس ، يحمل في يده خنجراً ، وكان روبي دائماً ما يطعن بالخنجر في القلب . . . وكان شبيطة دائماً ما يسقط مضرجاً بدمائه !

ذات مرة ، هب مندي من نومه مرتجفاً ، فلقد كان الحلم هذه المرة بشعـاً عنيفاً ، كـان يجلس على فراشـه محملقاً في الظلام عندما جاءه صوت شبيطة :

« **رجعت تحلم تاني يا مندي !** » .

همس مندي :

« **ريس شبيطة** » .

« **نام !** » .

« **أنا عاوز نقول لك على حاجة !** » .

« **قلت لك نام !** » .

« **ما هو آني مش حانسكت إلا لما نعرف ناوي على إيه ؟!** » .

وسـاد الصمت فغادر منـدي فـراشـه وخـطا نحـو فـراش شبيطة ، ركع بجواره وهو يهمس في حرارة :

« **ناوي على إيه ؟!** » .

بـرقت عينـا شبيـطة في الـظلام ، وارتسمت على وجهـه ابتسامة مريرة ، وتكسرت الكلمات على شفتيه :

« روبي غدار ! » .

« سيبهولي ! » .

قفز شبيطة جالساً من مكانه وقد أذهلته الكلمة :

« إبعد انت يا مندي ! » .

« آني حانجيب لك أجله ! » .

« قلت لك خليك انت بعيد . إنت لسه صغير على الحاجات دي ! » .

« آني جبت أجل ثلاثة قبل كده ، فيها إيه لما ندبح الرابع ! » .

وكانت هذه الجملة كفيلة بأن تجعل شبيطة يفغر فاه ـ ربما لأول مرة في حياته ـ ذعراً ودهشة . . . ظلا صامتين لدقائق لا يدريان إن كانت قد طالت أم قصرت ، وكان شبيطة ، على ضوء النجوم المتسرب من نافذة العنبر الخشبي ، يحاول أن يستشف ما وراء وجه مندي ، الذي بدا له رغم الظلام ، وكأنه تحول إلى وجه رجل آخر .

« إيه العبارة يا جدع ؟ » .

عاد مندي إلى فراشه دون كلمة ، ساد الصمت من جديد ليعود شبيطة فيشعل سيجارة متسائلاً :

« إيه العبارة يا جدع قول لي ! » .

ولم يكن هناك مفر ، كالقدر ، كأن إنساناً آخر هو الذي ينطق من صدر مندي ، أو كأنه يزيح عن صدره عبئاً ثقيلاً ،

راح مندي يحكي حكايته منذ البداية !

كان القطار قد توقف فيما بين قريتين ليفسح الطريق لقطارات الركاب المكتظة بجنود الاحتلال ، وكان الكمساري يصعد إلى السبنسة وهو يحمل جلباب زغدانة بعد أن غسله في مياه الترعة الصغيرة مما علق به من دماء ... . ولى النهار والقطار في مكانه ، وكانت زغدانة قد قصت على الرجل قصتها ، وكان هو قد طلب منها أن تختبىء في ركن من السبنسة لتخلع جلبابها كي يغسله لها وتتدثر بالمعطف الثقيل الذي أدفأها مع أكواب الشاي واللقيمات التي أعطاها لها . .

وقف الرجل بباب السبنسة الخارجي منادياً في صوت خافت :

« **زغدانة !** » .

وأطلت زغدانة من الداخل بوجه شاحب وشعر مهوش ، ونظرت إليه بعينين تائهتين . قال :

« **الجلابية نشفت !** » .

وامتدت لتأخذ منه الجلباب ، ثم اختفت واختفى وارتدت جلبابها وعادت إليه .

« **القطر حايقوم بعد عشر دقائق !** » .

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وكانت سنابل القمح تتمايل مع نسمات الشتاء الباردة ، وسألته زغدانة :

« يعني حانوصل إسكندرية إمتى ؟! » .

هتف الرجل دهشاً :

« إسكندرية ؟! » .

« هو القطر ده مش رايح إسكندرية ؟! » .

« لا يابنتي . . . إحنا حانوصل مصر على وش الفجر ! » .

عندما كان مندي يسير إلى جوار شبيطة وهما في الطريق إلى العمل ، كان ذهنه مشغولاً بسؤال واحد : هل أخطأ عندما أعلن سره لشبيطة ؟

وكان شبيطة هو الآخر ينظر إلى مندي بجانب عينيه متسائلاً : هل أصدقه هذا الفتى القول عندما حكى له حكاية زغدانة وبحارة الإنجليز الذين ذبحهم ؟!

غير أن شيئاً غريباً ، رغم هذا وذاك ، كان قد ربط الاثنين معاً بهدف واحد . فجأة ، قال شبيطة :

« إذا جرى لي حاجة يا مندي خليك بعيد ! » .

« وانت يعني حايجرى لك إيه يا معلمي ! » .

« اسمع يا مندي . . . اللي زي روبي ده آني شفت منهم كثير في الدنيا دي ، فيه ناس كده ربنا خلقها لأجل ما تأذي . . . روبي كده . مش حايسيب تاره إلا إذا مات هو أو . . . » .

هتف مندي مقاطعاً :

« خلاص . أجيب لك أجله ! » .

في عنف زجره شبيطة :

« قلت لك خليك بعيد ! » .

هم مندي بالحديث عندما استدار نحو شبيطة في عنف ، وألقى بما كان في يده من الآلات ومطارق وأنشب أظافره في خناقه وهو يصيح :

« اللي بنقول لك عليه تعمله يا جدع . فاهم ؟! » .

ذهل مندي ، فهتف :

« ريس شبيطة ! » .

ارتفع كف شبيطة في الهواء ليهوي على صدغ مندي في عنف صارخاً بصوت توقف له الجميع والتفتوا :

« قلت لك خليك بعيد يعني خليك بعيد . فاهم ؟! » .

كان مندي ذاهلاً فحاول التخلص من قبضة شبيطة :

« انت بتضربني يا ريس شبيطة ؟ » .

« وهو انت كبير على الضرب يا وله . . . طب خد ! » .

قبل أن تهوي اللطمة الثانية على وجه مندي ، كانت طلقة قد دوت في سماء المعسكر . وكانت صفارات الجنود قد ملأت المكان ، وهرول البعض منهم مشرعين سلاحهم ، وصاح بعض الرجال مهللين ، ووقف روبي بعيداً يتفرج ،

وكان شبيطة ، وكأنه فقد عقله ، قد بدأ يهوي على وجه مندي بالضربات وهو يصيح :

« أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة ! » .

وتوقف العمل في ذلك الصباح . وسيق مندي وشبيطة إلى الضابط الصغير الذي كان يشرف على المعسكر ، كان واحداً من هؤلاء الشبان ذوي الوجوه الحمراء والشعور الصفراء والأنوف الممتدة إلى الأمام في صلف يبعث في الغيظ . كان هناك تحقيق . وكان هناك سؤال ، وكان مندي ذاهلاً ، وكان شبيطة هائجاً . . . ومضى اليوم بسرعة ، وصدر الأمر بفصل مندي عن شبيطة ، ذلك أن شبيطة كاد يعتدي على مندي في مكتب الضابط وهو يكيل إليه الإتهامات ، ولم يكن مندي يقول شيئاً ، كان ذاهلاً ، وكان فاهماً ، وكان يهتف من قلبه المكلوم :

« انت ليه عاوز تبعدني عنك يا معلمي ! » .

لكن شبيطة لم يرد عليه . أبداً لم يرد . كان وكأنه قد تحول إلى وحش كاسر ، فراح يلقي بالتهم ويقذف بالشتائم وكأنه فقد عقله . . . وعندما انتهى كل شيء ، ووضعت القيود الحديدية في يد شبيطة ، وساقوهما معاً كلاً إلى مكان . . . عندما كانا يسيران وسط الجنود المدججين بالسلاح في فناء المعسكر ، حانت لحظة الفراق . . . فتوقف شبيطة مستديراً نحو مندي ، وكان وجه مندي مليئاً بالكدمات ، وكانت في عيني شبيطة نظرة غريبة . . . وقتها فقط ، في لحظة الفراق

هذه ، همس شبيطة :

« خلي بالك من نفسك يا مندي ! » .

ثم استدار ومضى نحو مصيره الجديد ، ولم يكن مندي يعرف ، في تلك اللحظات الغريبة ، أن هذه هي المرة الأخيرة ، التي يرى فيها شبيطة حياً !!

* * *

كان القطار يقترب من محطة القاهرة عندما أبطأ من سرعته حتى أصبح يزحف . . . وكان عم رشاد ، وهذا هو اسم الكمساري ، يعيد للمرة العاشرة حديثه لزغدانة :

« حاتنزلي هنا . ومعاكي عشرة صاغ . تعدي القضبان دي لحد السور ، تنطيه حاتلقي نفسك في شبرا . . . تسألي على محطة الأوتوبيس ، سامعاني يا زغدانة ؟! » .

« أيوه سامعاك يا عم رشاد ! » .

« لما توصلي محطة الأوتوبيس اسألي على أوتوبيس السيدة ، حاتدفعي قرش ويفضل معاكي تسعة ، في السيدة زينب تنزلي ، في آخر الخط . فاهمة ! » .

« أيوة . . فاهمة يا عم رشاد ! » .

« تنزلي في آخر الخط وتستنيني . مهما غبت عليكي لازم تستنيني . إذا جعتي اشتري حاجة كليها ، ميدان السيدة مليان بالخير . إقري الفاتحة لأم هاشم ، وأقعدي هناك لحد ما آجي لك ! » .

« حاضر يا عم رشاد ! » .

« ياالله اتوكلي على الله ! » .

هبطت زغدانة ، كان القطار يزحف في بطء بالغ . وقبل أن تقفز زغدانة إلى الأرض المبدورة بحبات الزلط الكبيرة هتف :

« زغدانة ! » .

التفتت نحوه متسائلة :

« أنا يابنتي متجوز وعندي خمسة . تلات بنات وولدين . ماتروحيش هنا ولا هنا ، ولاد الحرام كتير وعساكر الإنجليز مالين البلد ولافيش لهم كبير ! » .

« حاضر يا عم رشاد ! » .

« يمكن أتأخر عليكي شوية ماتقلقيش ! » .

« حاضر ! » .

« أصلي لازم أسلم القطر قبل ما أروح ! » .

« حاضر ! » .

هم الرجل بالحديث مرة أخرى لكنه توقف . كانت المخاوف تعصف به . وكان يشعر في ذلك الوقت أن اليومين اللذين قضاهما مع زغدانة في سبنسة قطار كان يزحف على القضبان ، قد ربطاه بها إلى الأبد ، غير أن سر قلقه هذا ، وإلحاحه هذا ظل غامضاً بالنسبة إليه وإليها . . . وكأن شيئاً ، شيئاً غريباً لا يدريه وقد لا تدريه هي الأخرى ، قد حدث في داخله . . . وأخيراً لم يجد أمامه مفراً ! !

كانت زغدانة لا تزال معلقة على سلم القطار وهي تنظر إليه ، فأرخى عينيه وهمس :

« **إنزلي بقى ربنا معاكي !** » .

وقفزت زغدانة إلى الأرض ، ووقفت ترقب القطار وهو يبتعد في بطء شديد ، كان عم رشاد يقف في مؤخرة العربة ينظر إليها ، وكانت هي تقف بين القضبان تنظر إليه ، كان يبتعد ، يبتعد ، حتى ذاب القطار وسط عشرات القطارات التي كانت تقف على القضبان العديدة الممتدة في هذا المكان . . . وأحست زغدانة بغصة تقتحم صدرها ، ها هو إنسان آخر يحنو عليها ، وها هو القدر يحمله إلى بعيد ، فهل تقترب منه حتى يقتله الإنجليز هو الآخر ؟!

صعدت دمعة إلى عينيها فتركتها تنزلق في بطء . ومدت يدها إلى جيب جلبابها وقبضت على قطعة النقود الفضية في يدها . وراحت تعبر حقل القضبان هذا ، حتى إذا وصلت إلى السور قفزت من فوقه ، لتجد نفسها في شارع طويل ، شارع غريب مترب كالح مزدحم . . . سارت في الشارع وهي تشعر أن كل العيون تنظر إليها ، لكنها عندما اقتربت من امرأة كانت تسعى بملاءة لف ، سألتها عن محطة الأوتوبيس ، وأشارت لها المرأة إلى نهاية الطريق . فعادت زغدانة تسير من جديد ، وهي لا تدري إلى أين !!؟

الصورة السابعة عشرة

كانت زغدانة وهي تسير في ذلك الشارع الذي بدا لها غريباً مزدحماً مترباً ، تنظر حولها وهي تتساءل : هل هذه هي القاهرة ؟! . . . طالما تمنت أن ترى القاهرة ، أن تسير في شوارعها ، أن تشاهد ناسها ، وأن تزور ضريح السيدة زينب بالتحديد ، وكلما كانت تسمع أمها وهي تدعو : يا أم العواجز ، كانت تشعر شعوراً عميقاً ودفيناً بشيء يربطها بالسيدة زينب ، أم العواجز هذه التي دائماً ما كانت أمها تدعوها على البعد كي تساعدها وتقف بجوارها . . . و . . . وها هي الآن في طريقها لأم العواجز شخصياً ، ها هي تقف عند محطة الأوتوبيس ، وتسأل ، ويدلها الناس . . . ها هي تصعد إلى الأوتوبيس وتجلس في أحد المقاعد ، وتسأل الكمساري ، ربما للمرة العاشرة ، هل سيقودها هذا الأوتوبيس إلى السيدة زينب ؟! . . . ثمة إحساس غريب ، واضطراب أغرب كانا ينتابانها كلما سعى الأوتوبيس في سيره ، كلما قطع شوطاً في الطريق ، أو ترك شارعاً ودار إلى شارع . . . كانت عيناها تلتهمان كل شيء ، وكان قلبها يفيض بالحنان ، فهل . . . هل تساعدها أم العواجز ؟! . . . هل تقف بجوارها ؟! . . . هل تنصرها ؟!

« السيدة يا شاطرة ! » .

وانتبهت زغدانة مما كانت غارقة فيه ، انتبهت ثم ارتجفت ، ودارت عيناها بسرعة ولهفة ، كانت تبحث عن الجامع والضريح . . . وكان الرجل لا يزال يقف بجوارها . .

« إنتي غريبة يابنتي ؟! » .
« فين السيدة زينب يا عم ؟ » .
« آهيه قدامك ! » .

لكن الجامع لم يكن هو الجامع الذي صوره لها خيالها . . . هبطت من الأوتوبيس وهي تشعر وكأنها تسير في الهواء . كان الميدان مزدحماً بالخلق لكنها ما أن اقتربت منه حتى علا صوت ينوح :

« يا أم العواجز ! » .

كان الصوت حزيناً ، وكان كسيراً ، فصعدت الدموع إلى عينيها ، رغماً عنها . . . قالت لنفسها أنها تنذر أن تذبح خروفاً ، حتى ولو ماتت في سبيل شرائه ، لو حققت لها أم العواجز ما تريد . . . كان ما تريده زغدانة شيئاً غريباً ، كان أملاً بعيداً ، غائصاً في أعماق أعماقها ، ولو أن القطار قادها إلى الإسكندرية لكان تحقيق الأمل هيناً وميسوراً ، في الإسكندرية كانت قدماها ستعرفان الطريق ، أما هنا ، في هذه المدينة الواسعة الرمادية اللون . . . فأين الطريق ؟!

عندما وقفت بباب السيدة زينب ، عضها الجوع ، مدت

يدها إلى جيب جلبابها وقبضت على القروش التسعة الباقية لها . . . خطت داخل الجامع فاحتوتها رائحة غريبة ، راحت تتلفت حولها بحثاً عن الضريح ، حملتها صيحات المكلومين : « مدد يا ست ! » . . . جاشت نفسها بسيل بلا نهاية من الدمع فتركته ينهمر من عينيها بلا حساب : « يا أم هاشم ! » . . . قادتها الصيحات والنداءات والدعوات إلى حيث كان الضريح يكمن خلف سوره النحاسي اللامع ، امتلأ صدرها برائحة البخور فتذكرت أمها في كل جمعة ، وقت الصلاة ، عندما كان المؤذن يؤذن ، وعندما كانت هي تطلق البخور في العشة الصفيح فيسخر منها الكومي قائلاً :

« بتبخري على إيه يا وليه ! » .

« يوه يا خويا . . . آهي بركة ! » .

وتمتمت زغدانة من بين شفتيها :

« يا حبيبي يابا ! » .

ولم تستطع زغدانة أن تقاوم . . . كانت وكأنها في انتظار هذه اللحظة ، تقدمت من السور وهي تهمس منادية : « يا أم العواجز ! » ، انهمر الدمع من عينيها غزيراً وتهاوى جسدها فتشبثت بالسور ثم هبطت لتجلس على الأرض بجواره . . . ملأها إحساس طاغ بأن يداً تمتد من داخل الضريح لتمسح على رأسها . . . سرى الخدر في أوصالها فأسندت رأسها على السور المشغول فكأنها وضعت رأسها فوق صدر أمها ، همست :

« ساعديني يا أم العواجز . . . خدي بإيدي دانا يتيمة ! » .

ولم يكف الدمع أبداً عن الإنهمار . . . لكن زغدانة ، كلما فاض الدمع من عينيها ، كلما أحست بتلك الراحة الغامرة التي افتقدتها وظنت أنها فقدتها . . . تمضي بها الدقائق وهي تتحدث ، كانت ـ الآن ـ تشعر وكأن السيدة زينب قد خرجت من ضريحها لتجالسها . . . قالت :

« **الإنجليز هتكوني يا ست !** » .

قالت :

« **الإنجليز أخدوا مني مندي يا أم هاشم !** » .

قالت :

« **الإنجليز قتلوا أحمد الحمامصي !** » .

نهنهت واهتز جسدها وهي تدفن رأسها في تعرجات السور النحاسي :

« **وقتلوا أبويا وأمي في يوم واحد !** » .

ولوهلة . . . ومضة . . . لحظة غريبة مفزعة . . . تنبهت زغدانة إلى أنها ، حتى الآن ، لا تعرف أين دفن أبوها وأمها . . . أنها . . . أنها ليست يتيمة فقط ، بل هي لا تعرف لوالديها مكاناً . . . ومن صدرها ، لا ، من قلبها ، من أعماق قلبها ، أطلقت صرخة عاتية .

وتجمع حولها الناس !!

كان مندي يعلم سر هذا الذي فعله معه شبيطة . بات لأول مرة منذ غرقت السفينة وحده . . . كان فراش شبيطة بجواره خالياً ، وكان الرجال في العنبر ينظرون إليه من بعيد دون حديث ، اختفى شبيطة من العنبر لكن الحياة فيه عادت إلى ما كانت عليه ، فهل ينتظر شبيطة تلك المعركة الضارية بينه وبين روبي ؟! . . . و . . . وهل يقتل روبي فيقتلونه ، أو يقتله روبي فيختفي من حياته ، في كلتا الحالتين ، ذلك الصديق الذي ركن إليه وأحبه ؟!

مضى الليل لكن مندي لم ينم ، كان يعلم أن شبيطة أراد له أن يبتعد عما هو قادم من أحداث ، في الصباح الباكر تقدم منه رجل أفريقي أسود اللون غليظ الشفتين له عينان نفاذتان ، فقال :

« هل أنت حزين على صديقك ؟! » .

نظر إليه مندي وكان لا يزال راقداً فلم ينهض . . . همس الرجل وهو يربت على يد مندي .

« لقد أراد أن يبعدك عن المعركة فلا تغضب منه ! » .

هب مندي جالساً وقد مس حديث الرجل الذي كان يتحدث إليه بالإنجليزية شغاف قلبه .

« ما زلت صغير السن ، ومثل هذه المعارك لا يطيقها إلا من عرك الحياة وعرفها ! » .

أراد مندي أن يتحدث ، أن يقول شيئاً لكن لسانه التصق بسقف حلقه . . . نهض الرجل من مكانه وقد أحس بعزوف مندي عن الحديث ، أطل عليه من وقفته وهو يهمس :

« هل أنت مسلم ؟! » .

« نعم ! » .

قالها مندي في لهفة . . . فهمس الرجل :

« أنا أيضاً مسلم ! » .

وعندما رأى تلك النظرة الغريبة في عيني مندي ابتسم عن أسنان شديدة البياض وهو يتلو بالعربية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ! » .

هم مندي بالنهوض فوضع الرجل يده على كتفه وتلفت في العنبر ناظراً إلى الرجال الذين كانوا قد بدأوا يغادرون أسرتهم وعاد يقول :

« لا تخبر أحداً بهذا السر . . . لقد أردت فقط أن أقول لك أنك لست وحيداً ! » .

تركه الرجل ومضى فهتف مندي لنفسه :

« كيف يكون مسلماً وكيف يكون اسمه موريس ! » .

. . . .

. . . .

كان الجو صحواً رغم البرودة التي كانت تدثر الدنيا من حول الرجال ، وكانت الشمس واهنة الحرارة تبدو في السماء مثل عروس تخجل أن ينظر إليها الناس في ليلة زفافها ، وكان مندي مستغرقاً في حيرته عاكفاً على ما كانوا قد عهدوا إليه به من عمل عندما أحس وكان تياراً كهربياً قد سرى في الجو دون صوت . استقام من انحناءته وراح يرقب الفناء الواسع وقد تناثر فيه الرجال وراحوا يتحركون في كسل ، تساءل مندي بينه وبين نفسه عن سر هذا الإحساس الغريب الذي اجتاحه اجتياحاً ، لم يكن هناك ما ينبىء بشيء ، كان كل شيء هادئاً ، وكان الرجال يعملون بكسلهم المعتاد ، وكان الجنود يحملون البنادق فوق أكتافهم في استرخاء وهم يسيرون بين الرجال شأنهم كل يوم . . . فما الذي حدث ؟! .

« صباح الخير يا رفيق » .

كان هذا هو كومارو الهندي السيخي الذي يربي ذقنه ولا يحلق شعره ويصففهما معاً بطريقة كانت تدهش مندي دائماً ابتسم مندي وهو يرد التحية وعاد كومارو يقول :

« رغم أني لا أدخن ولا أحب التدخين ، بل إنه عندنا حرام . . . إلا أن بي رغبة عارمة في المعصية ؟! » .

لم يفهم مندي ما كان يقوله كومارو . . .

كان يدهشه أشد ما تكون الدهشة أن الهنود ـ كل الهنود الذين التقى بهم في مصر أو في الخارج ـ يتحدثون الإنجليزية

بطلاقة وكأنها لغتهم . . . بدأ على وجهه أنه لم يفهم فراح كومارو يعيد ما قاله مرة أخرى بكلمات أبسط ، ابتسم مندي وقد أدرك ما يريده الرجل ، فمد يده في جيبه متسائلاً :

« هل تريد سيجارة ! » .

« لا لا . . لست أريد سيجارة ، فأنا لن أدخن وإن كنت أريد ذلك ؟! » .

انتابت مندي الحيرة وهم بالحديث عندما علت في الفناء صيحة السارجنت كوبر :

« هيه . . . أنتما هناك ! » .

التفت مندي وكومارو وأيديهما تعملان بسرعة وكأنهما يعرفان ما الذي سوف يقوله كوبر . . . عاد السارجنت يصيح :

« عودا إلى عملكما وكفا عن الثرثرة وإلا . . . » .

صمت كوبر فلقد أطاع مندي وكومارو وانحنيا على بعض المعدات يحملانها إلى أحد اللواري الواقعة في الفناء . . . عاد كومارو ، فوراً إلى الهمس :

« منذ رأيتك وأنا أريد أن أقرأ كفك ! » .

تهلل مندي في بداية أيامه في المعسكر عندما رأى كومارو وهو يقرأ أكف الرجال لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منه . . . في لحظة تذكر يوم أن أمسك كومارو بيد شبيطة ونظر فيها فأربدت ملامحه ورفع عينيه إليه . . . وعندما طال صمته صاح

فيه شبيطة في سعادة ومرح :

« **تكلم أيها الرجل ، ماذا رأيت ؟!** » .

في اختصار قال كومارو :

« **ملاك الموت !** » .

ضحك شبيطة وصاح بالعربية :

« **كلنا ليها !** » .

ولم يفهم واحد من الرجال ـ سوى مندي ـ صيحة شبيطة ، تبادل الجميع النظرات وبدت في عيني كومارو نظرة دهشة . . . فعاد شبيطة إلى الحديث مفسراً :

« **هل ستموت يا كومارو ؟!** » .

قال كومارو :

« **بالتأكيد !** » .

ضحك مندي فسبحت ضحكته مرحة في أرجاء العنبر وقال :

« **وأنا أيضاً سأموت !** » .

بدت فلسفة شبيطة وكأنها أعجبت كومارو فابتسم . وعاد شبيطة إلى الحديث :

« **كلنا سنموت يا رفيق !** » .

يذكر مندي هذا جيداً . يذكره الآن ويتساءل كيف نسيه ، حدث هذا في اليوم الثالث لدخولهما السجن ، وكان كومارو يقرأ كف شبيطة وكان مندي يجلس بجواره ، جذب شبيطة يده من يد كومارو وهو يخاطب مندي ساخراً :

« كذب المنجمون يا وله ؟! » .

ابتسم مندي وهو يردد ما قاله شبيطة : « كلنا ليها يا معلمي ! » .

عاد شبيطة يقول :

« الراجل ده بيضحك على عقول الخلق . . . قال إيه آني حانموت ، طب ما آني لازمن حانموت ! » .

كان مندي سعيداً بالعودة إلى الحديث مع شبيطة ، جلس كل منهما على فراشه . . . غير أن سحابة طافت بوجه شبيطة ، سحابة حزينة حقاً . لكنه سرعان ما زفر وهو يلقي بنفسه فوق الفراش كمن يهرب من شبح ، وجاء صوته خافتاً عميقاً :

« الأعمار بإيده هو . . بإيده هو ! » .

. . .   .

. . .   .

تذكر مندي كل هذا وهو يحمل صندوقاً ثقيلاً ساعده كومارو في حمله وهو يهمس :

« أريد أن أقرأ كفك ! » .

« ولم لم تفعل يا كومارو » .
« لأني خائف ! » .

قال كومارو هذا وهو يقفز إلى اللوري كي يتلقى الصندوق من فوق كتف مندي غير أنه للحظة ، جمد في مكانه . . . وأحس مندي بالثقل يضغط على ظهره فصاح :

« خذ الصندوق عني يا كومارو ! » .

غير أنه ، وهو يزيح الصندوق عن كتفه إلى اللوري . . . دار برأسه إلى أقصى الفناء ، وهناك رأى شبيطة .

تخلص مندي من حمله ووقف في مكانه ينظر إلى شبيطة الذي كان يقف أمام جندي يحمل بندقيته فوق كتفه ، كان كومارو هو الآخر يقف فوق اللوري وهو يرقب شبيطة لكنه كان يتمتم بكلمات لم يفهمها مندي . . . رفع مندي إليه رأسه وكان كومارو الآن يهتف وهو ينظر إلى الناحية الأخرى من الفناء :

« يا إلهي ! » .

استدار مندي إلى حيث كان ينظر كومارو فدق قلبه بعنف وصرخ بكل ما في حنجرته من قوة :

« حاسب يا ريس شبيطة ! » .

غير أن كل شيء تم بسرعة غريبة . . .

كان روبي ينطلق عدواً بكل قواه نحو شبيطة ، كان قد ترك ما في يده وراح يخترق الفناء غير عابىء بصيحات السارجنت

كوبر وهو يهتف به أن يقف . . . وكان شبيطة ، عندما سمع صيحة مندي قد التفت . . . لكنه لم يكن يملك من الوقت ما يمكنه من الحركة ، فلقد وصل إليه روبي ، انقض عليه وغرس في صدره سكيناً ، فدوت صيحة شبيطة في سماء الفناء ، صيحة مكتومة مليئة بالألم ، لكنها كانت أيضاً . . . صيحة مبتورة .

في تلك اللحظة بالذات ، سبحت سحابة وحيدة في سماء المكان . فحجبت قرص الشمس الواهن ، وساد الدنيا لون رمادي حزين . . . وكان شبيطة يهوي إلى الأرض لأول مرة . . . وكان مندي يعدو نحو روبي وهو يصرخ كالمجنون ! .

الصورة الثامنة عشرة

تم كل شيء في لمح البصر . وقبل أن يصل مندي إلى روبي الذي كان يقف الآن والسكين في يده يقطر دماء وقف في طريقه عشرات من الرجال ومن جنود الإمبراطورية ، ظل يصرخ ويصرخ ويسب ويلعن ويضرب ويتلوى ويحاول التخلص من عشرات الأيدي التي أحاطت به . كان يقفز إلى أعلى فيرتفع جسده وتلتقط عيناه وجه شبيطة الشاحب الراقد فوق الأرض ، فيزداد جنونه ، فيهوي إلى الأرض محاولاً التخلص ممن أمسكوا به دون جدوى . . . دون جدوى . . . دون جدوى . .

وكما تم كل شيء في سرعة شديدة ، اختفى روبي عن الأنظار في سرعة أشد ، اختطفوا السكين من يده وقيدوه وصحبوه إلى حيث لا يدري مندي ولا يعرف ولا سبيل إلى الوصول إليه ، لكنه وجهه هذا البغيض ، وابتسامته هذه الساخرة ، أبداً لم تفارق خيال مندي الذي أصبح الآن راقداً فوق فراش في مستشفى صغير ، وقد عادت تريزا إليه مرة أخرى ، وأطلت عليه ابتسامتها .

بدت له الدنيا كئيبة بلا معنى ، بدت له الحياة سوداء

اللون ذات أنياب لا ترحم ، تذكر زغدانة فدمعت عيناه ، ومنذ أن خطفها جنود الإمبراطورية ، عرف هو طعم الدم ، ومنذ أن حدث ما حدث في السفينة ، ومنذ أن قتل الجنود الثلاثة والدم يلاحقه ، في كل مكان يلاحقه . . . ولكن لا بأس من قليل من الدم مرة أخرى وليكن ، حتى نهاية العمر ، ذا هدف واحد ، هو أن يقتل روبي . . .

* * *

تماماً مثلما كانت تختزن زغدانة الآن في صدرها ، ومنذ أن هربت من كفر الزيات وصعدت إلى القطار ، منذ أن التقت بهذا الكمساري الطيب القلب الذي ألبسها معطفه وغسل جلبابها وواعدها في ميدان السيدة زينب بعد أن أعطاها القروش العشرة ، لكنه لم يأت . . . منذ تلك اللحظات وزغدانة لا تفكر إلا فيما كان يفكر فيه البحار مندي ، ولقد كان كل منهما بعيداً عن الآخر كل البعد ، قريباً من الآخر كل القرب ، يفكر في نفس الشيء ، أن يلاحق الدماء كما لاحقته الدماء ، وأن يصبغ الحياة باللون الأحمر . . . وكما كان مندي ـ وهو راقد في فراشه في المستشفى ـ يفكر في كيف يقتل روبي ، كانت زغدانة الآن ، حيث أصبحت في مكان لم تعرفه ولم تسمع عنه ، تفكر في شيء واحد . . . أن تقتل من عساكر الإنجليز ، كل من يسقط في يدها . .

* * *

عندما فتح مندي عينيه وجد نفسه في المستشفى ، وكان

وجه تريزا يطل عليه :

« آني فين ؟! » .

امتدت يدهـا إلى جبينه ، وأطلت من عينيهـا نظرة حـزن عميق وهمست بالإنجليزية :

« **لا تتحدث كثيراً . . أنت متعب !** » .

« **آني فين ؟!** » .

« **استرح ولسوف أقص عليك كل شيء !** » .

« **ماتكلميني عربي يا تريزا !!** » .

ازداد صوتها خفوتاً وهي تقترب منه :

« **منـدي . . . انت مـريض . . . أغمض عينيـك . . . أغمض عينيك ونم ولسوف تعرف كل شيء !** » .

قبل أن يفتح مندي فمه بالسؤال مرة أخرى ، اقتحم الغرفة طبيب أحمر الوجه ، صارم التقاطيع . قال :

« **هل أفاق ؟!** » .

ابتعدت تريزا قائلة في أدب :

« **نعم يا سيدي !** » . .

وقف الطبيب ناظراً نحو مندي ممسكاً برسغه :

« **كيف أنت أيها القاتل الصغير !** » .

هم مندي جالساً في فزع :

« **قاتل ؟!** » .

انتفض الطبيب مبتعداً عنه هاتفاً في تريزا :

« **نادي الحارس في الخارج !** » .

« **أنا لم أقتل أحداً !** » .

قال الطبيب :

« **نعم نعم . . إذن فاهدأ !** » .

عادت تريزا ومعها أحد الجنود ، وكان يحمل على كتفه بندقية . . . وقف أمام الطبيب :

« **نعم يا سيدي !** » .

دون أن يحول الطبيب عينيه عن مندي ، قال مخاطباً تريزا :

« **إلي بالحقنة !** » .

في سرعة ، كانت تريزا ، في ركن الغرفة تعد إحدى الحقن . . . قال الطبيب :

« **إنه لا يزال في حالة هياج ، أعطه هذه الحقنة أيضاً !** » .

تقدمت تريزا من مندي ، همست :

« **أعطني ذراعك يا مندي !** » .

في عينيها نظرة حنان أذابت توتره . . . في حركتها حنان

جعله يعود إلى رقدته ، في صوتها دموع لا تخطئها أذن رجل حتى ولو كان رجلاً صغيراً ، شمر عن ذراعه وهو يهمس لها وقد مالت عليه :

« **لكني لم أقتل أحداً . . لم أقتل أحداً !** » .

غرست الحقنة في ذراعه . . . وبدأ الخدر يسري في أوصاله ، وكان يردد أنه لم يقتل أحداً . . . و . . . وبدأت المرئيات تتداخل في عينيه ، ومن بعيد ، من بعيد جاءه صوت الطبيب وقد اقترب منه وجهه هائلاً متداخل الملامح ، وكان يقول :

« **بل قتلت أيها السفاح الصغير ، قتلت جندياً من جنود صاحبة الجلالة !** » .

وغابت المرئيات ، وذابت الأصوات ، وراح . . . راح مندي ! . . وكان كل مافيه يردد بلا صوت :

« **أنا لم أقتل أحداً . . لم أقتل أحداً !** » .

* * *

رغم الإظلام ، ورغم الغارات . ورغم المصابيح الزرقاء . . . كان الشارع يموج بالأضواء والموسيقى وصيحات السكارى ودبيب أحذية جنود الإمبراطورية . . . وكانت زغدانة هناك . في شرفة البيت الذي قادتها إليه تلك السيدة الغريبة التي التقت بها في السيدة زينب ، ترقب كل شيء في صمت وتفتح عينيها جيداً حتى تعي كل شيء ، وترى كل شيء ،

وتفهم كل شيء . . . وعندما حدث ما حدث لها بجوار الضريح ، وتجمع الناس من حولها ، كان لا بد للمولد أن ينفض في ساعة . . . غير أن المولد انفض في لحظة غريبة وجدت رأسها فيها ، وهي تنتحب وتنهمر دموعها بغزارة لم تعرفها من قبل ، وجدت رأسها فوق صدر تلك السيدة التي راحت تبسمل وتحوقل وتصلي على آل البيت وتقرأ في أذنها قرآناً وتربت على ظهرها وكتفيها وتسألها عما بها .

انفض المولد عندما صاحت السيدة بجمع الناس الذين سدوا منافذ الهواء على زغدانة .

« يا ناس حرام عليكم . . شوية هوا » .

واخترق الجموع شيخ يحمل قلة ، أخذ منها ماء ورشه على وجه زغدانة فانتفضت ، نظرت حولها فإذا الرؤوس ملتفة حولها ، وإذا العيون تحملق فيها ، وإذا صوت السيدة يصيح مرة أخرى في الناس أن ينفضوا ، فانفضوا في بطء وتراخ وكل منهم يدعو الله أن يجنب المسكينة العذاب . . . قالت السيدة :

« ما لك يا ضنايا ! » .

كان صوتها حنوناً حنوناً . . . فانهمر الدمع من عيني زغدانة دون كلام .

« قومي يا حبيبتي ! » .

بذلت كل جهدها كي تنهض فنهضت .

« إنتي غريبة عن هنا يا بنتي ! » .

سارت معها وهي تهز رأسها إيجاباً !

« مالكيش خد في مصر ؟! » .

غادرت معها المسجد وهي تهز رأسها نفياً . .

« لا حول ولا قوة إلا بالله . . . وحاتعملي إيه يا بنتي ! » .

راحتا تعبران ميدان السيدة في طريقهما إلى محطة الأوتوبيس ، وكانت زغدانة تهمس :

« أنا حاستني عم رشاد على محطة الأوتوبيس ! » .

« مين عمك رشاد ده ؟! » .

« الكمساري بتاع القطر ! » .

« وده يقرب لك ! » .

« لأ » . .

« تعرفيه منين ؟! » .

« من القطر ! » .

« وحاتستنيه ليه ؟! » .

نظرت زغدانة إليها في صمت . . . أمسكت السيدة بذراعها وأدارتها حتى واجهتها :

« إنتي اسمك إيه ؟! » .

« زغدانة ! » .

« من أي بلد ؟! » .

« إسكندرية » .

« وإيه اللي جابك مصر ؟! » .

وكان لا بد لزغدانة أن تقص عليها الحكاية . . . في إنكسار قصت عليها قصة ركوبها القطار . . . اشترت السيدة خبزاً وطعمية وقدمته لها :

« خدي كلي ! » .

أحست زغدانة بالخطر لسبب مجهول ، وعادت المرأة إلى الحديث :

« أنا حاقعد معاكي لحد ما ييجي اللي اسمه عمك رشاد ده وأشوفه بنفسي ! » .

نظرت إليها زغدانة غير فاهمة ، فعادت السيدة تقول

« إنتي وحدانية . . . والزمن يا بنتي بقى غير الزمن ، وابن الحرام ماخلاش لابن الحلال حاجة ! » .

همت زغدانة بالحديث لكن السيدة استطردت :

« والإنجليز ماليين البلد وكل من حي عاوز ينهب له قرشين إن شا الله على حساب روحه ! » .

راحت زغدانة تمضغ في صمت :

« أنا كان لي بنت لو عاشت كانت حاتبقى قدك ! » .

أخـذ عقل زغـدانة يعمـل في سرعـة . ماذا تـريـد هـذه المرأة ؟

« أنا عايشه مع عمك مدبـولي لوحـدينا . . . إن مـا جاش الكمساري تعالي معايا ! » .

لم يكن أمامها سوى الاستسلام .

« شـوفي يـا بنتي . . . إحنـا عنـدنـا قهـوة في عمـاد الدين ! » .

وكانت هذه هي المرة الأولى في حياة زغدانة التي تسمع فيها باسم شارع عماد الدين . . . لكنها في تلك اللحظة التي سمعت فيها اسم الشارع ، لم تتصور أن هذا الاسم بالذات ، وهـذا الشارع على وجـه الخصوص ، سوف يكون لهمـا في حياتها شأن وأي شأن .

ولقد انتظرت مع الست عنايات حتى كادت الشمس تغيب دون أن يظهر عم رشاد . . . غمغمت الست عنايات أن زوجها سوف يقلق عليها ، لقد أخبرته أنها ذاهبة لزيارة السيدة للوفاء بنذر كانت قد نذرته . . . ودارت زغدانة بعينيها فيما حولهـا ، وهزت رأسها كمن تقول : أنها لن تخسر أكثر مما خسرت .

ونهضت مع عنايات !

وها هو النهار قد انقضى ، وها هو الليل قد جـاء بعد أن غادرتها الست عنايات مـع عم مدبـولي إلى المقهى القائم غير بعيـد عن البيت . تركـاها وحـدها فنهضت إلى البيت لتغسله ،

مضت ساعة وساعة وأصبح البيت مرتباً نظيفاً ، كان بيتاً واسعاً ، وكانت وحدها فيه ، وعندما حل الظلام ، اقشعر بدنها من الخوف ، فهربت من خوفها إلى الشرفة ، وطالعها بما فيه من أضواء وصيحات وضحكات وحركة كانت تموج بلا توقف . . . امتصتها تلك الحياة ، وامتلأت بالكراهية وهي ترى جنود الإمبراطورية ، وامتلأت بالحنين وهي تتذكر مندي . . . ودمعت عيناها وهي تذكر أحمد الحمامصي . . . لكن النعاس غلبها على ذكرياتها ، فسقط رأسها فوق صدرها . . . واستيقظت مع آذان الفجر ، وصوت الست عنايات يهتف :

« **مدبولي . . . زغدانة آهيه . دي نايمة في البلكونة يا حبة عيني !** » .

* * *

كانت أيام قد مضت ، وعلم مندي أنه أصيب بانهيار عصبي ، وأنه نقل إلى المستشفى في حالة هستيريا عنيفة ، وأنه ـ أيضاً ـ ظل لأيام يتغذى بالأنابيب ، وكلما أفاق أعطوه حقنة مخدرة أعادت إليه هدوءه .

قالت له تريزا أنها تحبه . . . وقالت له أن شبيطة قد مات ، وأنه دفن في سفح الجبل ، وأن روبي قد وضع في زنزانة منفردة ، وأن محكمة سوف تشكل لمحاكمته ، وأنها على يقين من أنهم سيحكمون عليه بالإعدام . . .

كان كل هذا مقبولاً ومعقولاً ، لكن ما قالته له تريزا بعد

ذلك هو ما لم يقبله عقله ، قالت له أنه مخفور ، وأن جندياً يقف بباب حجرته بالمستشفى ليل نهار ، وأنه يعتبر سجيناً . . . كاد مندي يفقد عقله عندما قالت له تريزا ما قالت ، كاد يجن عندما علم أنه ، في هياجه هذا بعد مقتل شبيطة ، قد اختطف بندقية من يد أحد الجنود ، وأنه انهال بها على كل من حاول أن يمسك به أو يمنعه ، وأنه ـ وهنا خفق قلب مندي بعذاب حقيقي ـ ضرب جندياً على رأسه بمؤخرة البندقية فهشمها !

قالت له تريزا أنه سيحاكم . . . وأنهم يعرفون أنه لم يقصد قتل أحد . . . قالت أن القانون قانون ، وأنهم سوف يحكمون عليه بالسجن لسنوات لن تقل عن الخمس . . .

قالت تريزا الكثير ، ظلت لأيام تحكي له ما حدث ، كانت تستقي الأخبار من عم لها يعمل جندياً في السجن . . . قالت له الكثير . لكنه أبداً لم يذكر أنه قتل أحداً ، لم يذكر شيئاً مماقصته عليه . . . وكان ينظر إليها وكأنه يصرخ بها أن تساعده . . . حتى إذا كان مساء ، جلست إليه وقالت :

« مندي . . . أنا أحبك ! » .

كان في الأيام الأخيرة عازفاً عن الحديث ، لم يعد لشيء عنده معنى ولا مذاقاً ولا قيمة ، أمسكت بيده فارتجف ، خشي عليها من الموت ، خشي عليها من الدم . . . لكنها همست :

« لا بد أن تفعل شيئاً ؟! » .

نظر إليها متسائلاً . . . لم يكن يدري ما الـذي يمكن أن يفعله . همست :

« **لا بد لك أن تهرب !** » .

ابتسم في ضياع . . . فلم يكن يدري إلى أين يهرب . لم يكن يعرف لنفسه هدفاً ولا طريقاً . . . نـظر من النافـذة فرأى الجبل الداكن اللون يطل عليه كالشبح المهيب . . . ضغطت يدها على يده وعادت تهمس :

« **لا بد لك أن تهرب ؟** » .
« **إلى أين !** » .
« **إلى أي مكان !** » .
« **وماذا بعد الهرب !** » .
« **اذهب إلى المغرب . . . أعبر المضيق فقط ، وستجد هناك قوماً يتحدثون لغتك !** » .
« **أليس في المغرب جنود ؟** » .
« **إن العالم كله الآن جنود !** » .
« **قد يقبضون علي !** » .
« **وقد تستطيع العودة إلى بلدك !** » .

ودق قلب منـدي ، دق في عنف . وتذكـر زغدانـة . . . تذكر الإسكنـدرية والمينـاء ورصيف النورس . . . تـذكر أبـاه وأباها وأمه وأمها والصحاب والشوارع والحواري واشتاق لطبق من الفول . . .

« سوف أرتب لك الأمر ! » .

وكانت هذه هي آخر جملة قالتها تريزا قبل أن يحدث ما حدث بعد ذلك . قالتها وهي تطبع على شفتيه قبلة رقيقة ، وكانت عيناها دامعتين !

بدا له الأمر وكأنه حلم لا علاقة له بالواقع ، وعندما همست تريزا بأن عليه أن يهرب ، لم يفكر في الأمر ولم يعره اهتماماً ، كانت كلما أعطته حقنة استسلم وترك نفسه لأحلام كانت تدور حول الريس شبيطة الذي كان ، في رقدته على أرض السجن ، ووجهه الشاحب هذا الذي طالعه وهو يمد له يداً مرتجفة تطلب النجدة . . . وكان مندي ـ في هذا الحلم المتكرر ـ يمد يده نحو يد صديقه دون جدوى ، كانت يده دائماً لا تصل إلى يد صديقه ، فكان يصرخ منادياً عليه ، يصرخ ويحاول ويصرخ ويحاول ، حتى كاد ـ ذات حلم ـ أن يلامس اليد الممدودة فإذا به يستيقظ وهو يتصبب عرقاً ، وأنفاسه تتلاحق . . . وكانت تريزا تجلس على حافة الفراش وقد أخذته بين ذراعيها وهي تربت على رأسه هامسة في أذنه أن يهدأ . . . وعندما انتبه مما كان فيه ، كانت هي تبتسم قائلة :

« مندي . . . إنها أنا ! » .

« كم الساعة الآن ؟! » .

« جاوزت منتصف الليل ! » .

« هل كنت أحلم ؟! » .

« ولكن عليك أن تستيقظ الآن ! » .

« ماذا ؟! » .

« عليك أن تستيقظ يا حبيبي ! » .

سرى همسها الحنون إلى أذنيه فاستراح ، نظر إليها وتعجب ، كان يرى الحب في عينيها واضحاً ، رغم الليل والضوء الخافت والسكون . وكانت يدها تمسح على وجهه في حنان .

« ماذا هنالك يا تريزا ! » .

« أخفض صوتك . . . فلسوف تهرب الليلة !! » .

انتفض مندي وهو ينظر إليها في دهشة . . . عادت تهمس :

« لقد رتبت كل شيء مع ابن عمي ! » .

« ولكن . . . كيف سنخرج من هنا ! » .

« لقد أتيت إليك بملابس تقيك البرد ! » .

« والحارس الجالس في الخارج ؟! » .

« سوف تخرج من النافذة ونعبر حديقة المستشفى حتى السور الشرقي ، وهناك سنجد خوان ! » .

« من هو خوان هذا ؟! » .

« إنه ابن عمي . . . كف عن الحديث ، وانهض لتستبدل ملابسك ، وإياك أن تصنع أي صوت ، فلسوف أغادر الغرفة كي أطمئن إلى نوم الحارس تماماً ، ثم أعود إليك بعد خمس دقائق ! » .

شعر مندي وكأنه يتجمد في مكانه ، راح يحملق فيها غير مصدق . . . عادت إلى الهمس وهي تهتف :

« مندي . ليس هناك وقت ! » .

« وماذا إذا أحس بنا الحرس ! » .

« لا تخف . لن يشعر أحد باختفائك إلا في الصباح ! » .

« وإلى أين سأذهب ! » .

« سوف تعبر الحدود إلى أسبانيا مع مطلع الفجر ، فقط ، عليك أن تسرع ! » .

قالت هذا وغادرت الغرفة في خطوات ثابتة . . . أغلقت الباب خلفها وسمعها تضحك وهي تقول :

« إنه نائم كالطفل ، ولقد أعطيته حقنة أخرى ! » .

وجاءه صوت الحارس مرحاً :

« إذن ، فأنا أستطيع النوم ! » .

وتعالت ضحكات تريزا وابتعدت خطواتها وعاد السكون يسود المكان تماماً .

لكنه كان لا يزال جالساً في مكانه مسمراً . . . سمع صوت أنفاسه فاضطرب ، تعلقت عيناه بالباب ، فتحرك جسده رغماً عنه ، كأن قوة خفية تدفعه إلى النهوض ، كأن عشرات الأيدي تساعده على خلع ملابسه واستبدالها بتلك الملابس الصوفية الملقاة عند طرف الفراش ، اصطدمت قدماه العاريتان

بحذاء ضخم كان موضوعاً فوق الأرض ، دس قدميه في الشراب الصوفي السميك وهم بارتداء الحذاء عندما سمع نقراً انتفض له تماماً . دق قلبه بعنف بالغ . عاد النقر من جديد فالتفت نحو النافذة المطلة على الحديقة ، نهض إليها متلصصاً فاكتشف في ظلام الليل وجه تريزا من خلف الزجاج وكانت تشير إليه أن يفتح النافذة . . . امتدت يده ، وفي حرص بالغ كان يفتح النافذة فهب من الخارج تيار هواء شديد البرودة فارتجف لكن حواسه كلها انتبهت مرة واحدة . . . همست تريزا في عجلة :

« هيا . . . ليس هناك مزيد من الوقت ! » .

وقف جامداً لثوان لا يدري ماذا يفعل ، لكن صوتها عاد مرة أخرى كالسوط يلهب ظهره :

« هيا يا مندي . . . هيا ! » .

انحنى على الأرض والتقط الحذاء ، وصعد إلى قاعدة النافذة وسرعان ما كان في الحديقة . . . وعندما جاءه صوت تريزا الآن ، جاءه آمراً ، كأنها أصبحت امرأة أخرى ، كأنها أصبحت إنساناً آخر :

« ضع قدميك في الحذاء واربطه جيداً فإن المشوار أمامنا طويل ! » .

ما أن انتهى من وضع قدميه في الحذاء حتى مزق الصمت صوت سيارة تدخل من باب المستشفى في سرعة بالغة

والأضـواء الزرقـاء تسبقها . وضعت تـريزا يـدهـا على رأسـه فانكمش منحنياً خلف شجيرة صغيرة ، وكانت هي الأخرى قد انكمشت إلى جواره . قالت :

« **لا بد أن شيئاً قد حدث في الميناء !** » .

وقفت السيـارة أمام بـاب المستشفى ، وهبط منها بضعـة جنود فتحوا بابها الخلفي وراحوا يحملون بعض الجرحى . . . قالت تريزا :

« **اتبعني ولا تتردد . . . فسوف يقتلوننـا لو أنهم أمسكـوا بنا . . . هيا . . . الآن !** » .

قـالت هـذا وتـركتـه عـدواً إلى حيث السـور الشـرقي للمستشفى . . . وكان مندي يعدو خلفها ، حتى إذا وصلا إلى السور ، التفتت إليه لاهثة :

« **ارفعني إلى أعلى السور ولا تضيع الوقت !** » .

شبك يديه منحنياً فوضعت قدمها فوقهما . . . وسرعان ما كانت في أعلى السور وهي تهمس :

« **خوان !** » .

وجاءها الصوت من الناحية الأخرى :

« **لماذا تأخرت !** » .

التفتت نحو مندي وهي تقول :

« **هل تستطيع أن تقفز الآن** » .

وسرعان ما كان مندي يتدلى من الطرف الآخر إلى الشارع . . . وهناك وجد رجلاً كث الشعر كث الشارب يضع على رأسه طاقية صوفية تغطي أذنيه وجبهته . . . قال الرجل في سرعة :

« **هيا . . . اتبعاني !** » .

وراح الرجل يعبر الطرقات والأزقة في سرعة شديدة . وكان مندي يتبعه ، ويد تريزا تمسك بيده ، وكانت برودة الجو شديدة !

* * *

قالت الست عنايات :

« **عاوزة تيجي القهوة ليه يا زغدانة ؟!** » .

قالت زغدانة :

« **مانا بقى لي فوق الثلاث جمع وأنا قاعدة في البيت يا خالتي !** » .

ابتسمت عنايات وهي تقول :

« **بس القهوة مش ليكي يا بنتي !** » .

« **أبويا كان فاتح قهوة !** » .

ضحكت عنايات وهي تقول :

« قهوة أبوكي حاجة وقهوتنا حاجة تانية ! » .
« وأنا اللي كنت باخدم فيها ! » .
« ولو ! » .
« وأنا اللي كنت باودي الطلبات للزباين في المراكب وعلى الرصيف النورس ! » .
« زغدانة ! » .
« إنتي خايفة علي ؟! » .
« الإنجليز ماليين الشارع يا بنت الناس ! » .
« وماله . . . فيها إيه دي . . . ماهم ماليين البلد كلها ! » .

كانت لهجة زغدانة هذه المرة ذات نغمة خاصة . . . نظرت إليها الست عنايات نظرة ثاقبة كمن يحاول أن يستشف ما وراء تلك النبرة الغريبة الصارمة . . . همت بأن تقول شيئاً عندما عاجلتها زغدانة قائلة :

« طب ما انتي بتقعدي في القهوة مع عم مدبولي للساعة تلاتة الصبح ! » .
« أنا جوزي معايا ! » .
« طب ما انتو الاتنين معايا ! » .

وضعت الست عنايات يدها فوق يد زغدانة فصاحت هذه :

« أنا زهقت من قعدة البيت ! » .

« **بس إنتي حلوة !** » .

« **وما له !** » .

« **ولاد الحرام كتير !** » .

ابتسمت زغدانة وقالت في صوت شديد الجفاف :

« **ما تخافيش عليَّ !** » .

واستسلمت الست عنايات . وابتسمت وهي تقول :

« **طب قومي إلبسي الفستان اللي اشتراهولك عمك مدبولي . محدش عارف ربنا مخبي لنا إيه ؟!** » .

* * *

كانت سبعة أيام قد انقضت منذ هرب مندي من المستشفى . . وكان قد عبر مع تريزا وابن عمها جبالاً ووهاداً وممرات . وكانت أقدام الثلاثة قد تورمت تماماً ، عندما وقفوا جميعاً فوق ربوة عالية يطلون منها على شاطىء البحر ، حيث كانت مدينة صغيرة تقوم في حضن الجبل كأنها مدينة للأقزام . . . هتفت تريزا وهي تسأل ابن عمها :

« **قرطاجنة ؟!** » .

هز ابن العم رأسه إيجاباً وهو يقضم عوداً جافاً كان بين أسنانه .

« **هل تعرف بيت كارلوس ؟!** » .

هز ابن العم رأسه مرة أخرى إيجاباً وهو يسعى بين

الصخور هابطاً في منحدر كان يبدو شديد الخطورة ، لكنه غمغم مستديراً نحوهما :

« عليكما أن تنتبها جيداً . إن الطريق خطر ! » .

ابتسمت تريزا وهي تستدير نحو مندي قائلة :

« لقد نجونا يا حبيبي ! » .

وعندما همت بالسير أمسك مندي بيدها ، وراح ينظر إليها في عرفان ، التفتت إليه متسائلة فقال :

« هل أنت واثقة من أنك تريدين اصطحابي ؟! » .

قالت ضاحكة :

« فات أوان التراجع يا مندي . . . وفي هذه القرية ، سوف تجد قارباً تعمل عليه لتكسب لنا قوت يومنا ! » .

« تريزا ! » .

صرخت فيه تريزا :

« لو أنني عدت الآن إلى جبل طارق فلسوف يحكمون علي بالسجن لأني ساعدتك على الهرب ! » .

ثم استدارت ومضت . . . وكان مندي ، وهو يخطو خلفها فوق أرض المنحدر المليء بالصخور ، يشعر وكأنه يولد من جديد !

* * *

كان الوقت صباحاً عندما وقفت زغدانـة أمام عم مـدبولي والست عنايات . وكان الرجل وامرأته ينظران إليهـا في إشفاق بالغ ، أمامهما صينية القهوة ، وكانا صامتين ، أما هي فكانت باسمة .

« نازلة يا زغدانة ؟! » .

« أنا اسمي ليلى . . . إنتي نسيتي يا خالتي ؟! » .

نهضت عنايات من مكانها مرتجفة وهي تصيح :

« أنا مش فاهمة بديعة عاوزه منك إيه ؟! » .

« عاوزه تعلمني الرقص ! » .

قال مدبولي :

« وحاترقصي ؟! » .

« لازم آكل عيش يابا » .

قالت ما قالته وهي تشعر ، ربما لأول مرة في حياتها ، أن لها أباً بكل ما تحمل الكلمة من معنى . . . كان مدبولي ينظر إليها في حب واستسلام :

« طب خلي بالك من نفسك ! » .

« طول ما انتو معايا أنا مش ناعية هم حاجة ! » .

صاحت عنايات :

« وحاتقولي للناس إيه ؟! » .

« حاقول لهم إن انتوا أهلي . . . أبويا وأمي ! » .

تقدمت منها السيدة عنايات في حنان :

« زغدانة ! » .

« اسـمي لـيلى يـا امــه . . . لـيلى كـريـم . . . إنتـي نسيتي ! » .

كانت زغدانة تبتسم . . . فابتسمت عنايات ، وعادت إلى مجلسها مستسلمة :

« خلصي البروفة وتعالي على القهوة ! » .

« حاضر . . . فتكم بعافية ! » .

وعندما كـانت زغدانـة تخطو خـطواتها الأولى في شـارع عمـاد الدين مـرتديـة ذلك الفستـان ذا اللون الأصفر ، راحت تدب فوق الأرض وهي تشعر وكأنها تولـد ـ هي الأخرى ـ من جديد . . . وكانت هذه المـرة تعرف الـطريق جيداً إلى حيث كان كازينو بديعة يقوم في ميـدان الأوبرا ، كـأشهر مكـان في مصر في تلك الأيام . . . ولم تـكن تـدري أن رحلة العمر قد أتت الآن إلى منحنى جديد ، وخطر ، ورائع . . . لكنها أبداً في ذلك الصباح لم تذكر مندي . .

مايو ـ أغسطس ـ ١٩٧٨
القاهرة

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة



مطابع ستار برس للطباعة والنشر

٤٠ شارع المحولات الكهربائية محطة المطبعة - الهرم ت ٨٦٤١٥١



هذا الكتاب

مجموعة قصصية كانت بمثابة انطلاقة جديدة ومثمرة للأدب القصصي ، « الخوف » ، « خطاب إلى رجل ميت » بشرت بولادة أديب كبير وقصصي عملاق لا بدّ وأن يكون لهذا الفن الأدبي على يديه شأن يذكر .

إنه الكاتب الفذ ، الذي وصفه الدكتور محمد مندور ـ رحمه الله ـ بأنه « جي دي موباسان » العرب ، إنه الكاتب الأديب ، صاحب الروائع ، الأستاذ صالح مرسي . .

وها هو ذا في قصته الجديدة « البحار مُندي » يسبر أغوار النفس ، في زمن الاستعمار ، حيث يتجلى الصراع بين الخضوع للأمر الواقع وبين رفضه والثورة عليه . . . وأياً ما كانت النتائج .

« البحار مُندي » ، « زغدانة » ، « شبيطة » ، « روبي » وغيرهم من أبطال هذه الرواية ، هم رموز لهذا الصراع ، بشتى أشكاله ووسائله . . .

وهكذا يشع بصيص نور جديد في مسيرة الأدب القصصي ليمضي بنا إلى الأمام وليبدد ظلاماً أرخى ستائره . . .

مكتبة مدبولي الصغ

٤٥- البطل أحمد عبد الع

DBOULY
EL - SAGHIR
Mohandissin